ناحية البراءة

رشيد الضعيف



دار الساقي

ناحية البراءة

تصميم الغلاف: سحر مغنية
خطوط العناوين: حمدي طبّارة

رشيد الضعيف

ناحية البراءة



ISBN 978- 1- 85516- 969- 2

الطبعة الأولى، دار المسار، 1997
الطبعة الثانية، دار الساقي، 2013

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت.
ص.ب.: 113/5342. الرمز البريدي: 2033 - 6114

+961- 1- 866442، فاكس: 866443 -1 -961+

e- mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على


@DarAlSaqi


دار الساقي

Dar Al Saqi

- من مزّق الصورة؟

هذه هي القصة كلها، من أَلِفها إلى يائها. أرادوا أن يعرفوا من مزّق الصورة.

لكن انتبه، أقول لك قبل أن أبدأ، وقبل أن أسترسل في سرد التفاصيل التي قد يوحي بعضها بغير الحقيقة التي أريد نقلها إليك، أقول لك وأنا مرتاح الضمير، إن قصدهم لم يكن الأذى، وهذا شيء مهم جداً، وأقول أيضاً إني لم أكن مقصوداً لذاتي، وهذا أيضاً شيء في غاية الأهميّة.

دخلوا إذن فجأة! أربعة رجال في ثياب مدنية، أحدهم جلس وراء المكتب، واثنان آخران وقفا قربه، إلى يمينه، ورابع وقف إلى يساره وهو الذي بادرني بالسؤال.

كانوا رجالاً بكل معنى الكلمة، وكانت إرادة الحسم باديةً على قسمات وجوههم.

كانوا لا يحبون إضاعة الوقت، ولا يتحمّلون أن يعرقل تقدمهم غموض أو التباس. ولو كان عليّ اختصارهم بكلمة واحدة قلت بلا تردد: فاعلية! إنّ هذه نماذج نسمع عنها في بلادنا سمعاً، لكن قلّما نقع عليها بالفعل.

دخلوا فجأة، وتقدموا نحو المكتب، بصمت لافِت، وفورَ أنِ اتخذوا أماكنهم بادرني (الذي ذكرته قبلاً) بالسؤال، قال:

- من مزّق الصورة؟

فارتحتُ لسؤاله فعلاً، وانخفضتْ فوراً درجةُ التوتر الذي كنت عليه، لأنني استنتجت من السؤال الشيءَ الأكثر أهمية بالنسبة إليّ، وهو انهم لا يظنون بي سوءًا، إنما يريدون مني مساعدتهم على معرفة الفاعل فقط.

وبدا عليّ بوضوح انني ارتحت، ولاحظت انهم لاحظوا ذلك، ولاحظت أيضاً أنه لم يصدر عنهم أي حركة أو إشارة تفيد أن انفراجي لم يكن في محله، أو انه كان يخلو من اللياقة المناسبة للموقف.

لكنني سرعان ما لاحظتُ أيضاً أن الانفراج الذي شعرت به، والذي انعكس بالضرورة على وجهي، لم يغير في سلوكهم شيئاً، إذ انهم ظلّوا على حيادية مشاعرهم.

كانوا رجالاً بالفعل من حيث الصفات التي يتحلّون بها، وإن كانوا شباباً من حيث سنوات العمر.

وحين هممت بالإجابة بادرني من جديد قاطعاً عليّ الكلام:

- سألتك من مزّق الصورة!

وقد كرّر عليّ هذا السؤال وأنا لم ألفظ بعدُ حرفاً من إجابتي. كنت قد هممت بالكلام وحسب، فما معنى ذلك! ما معنى أن يسألني وألا يتركَني أجيب! فهل يستطيع أن يحزر جوابي قبل أن أصرّح به؟

وعادت هكذا قسمات وجهي إلى الانقباض من جديد، وتبددت موجة التفاؤل التي غمرتني لدى مبادرته إياي بهذا السؤال الذي ينضح بنيّتهم الحسنة تجاهي، فمقاطعته لي بهذه الطريقة، (– أقولها بصراحة)، أزعجتني داخلياً، لأنها ضعضعتني، أقصد انها فاجأتني، فلماذا لا يثق بي، ولماذا لا ينتظر حتى يسمع جوابي الذي قد يكون فيه ما يسعى إليه، أم انه أحس بأنني لن أجيبه جواباً شافياً فصعّد في لهجته علّه يجبرني على أن يكون أكثر فائدة له. ولكن كيف؟ كيف أكون أكثر فائدة له وإنّ ما يسعى إليه هو الحقيقة، وأنا لن أفيده إلا بالحقيقة؟

وكان هذا بالضبط هو المأزق!

هو يريدني أن أقول الحقيقة وأنا لا أريد أن أقول إلا الحقيقة. لكن كيف!؟

نعم! أعترف في الحقيقة بأنهم حين دخلوا فوجئتُ بدخولهم!

نعم! اعترف بذلك.

فوجئت بدخولهم مع أني كنت أتوقع مجيئهم من زمان، أو مجيء أحد منهم، أو مجيء أحد ما على الأقل، فاقترفت بذلك الخطأ الأول، الذي كان فاتحةَ سلسلةٍ من الأخطاء لا تحصى.

وفور دخولهم وقفتُ – وما كان عليّ أن أقف – لأقترف بذلك الخطأ الثاني. (هل كان عليّ فعلاً ألا أقف؟)

ثم، وبعدما جلسوا بقيتُ واقفاً – نعم واقفاً – لتكرّ هكذا سبحة الأخطاء.

هنا، لا بد لي، قبل أن يستغرقني استرجاع أحداث تلك الساعات الحرجة، من أن أوضح الأمر التالي: اليومَ فقط أُدرك أن تلك كانت أخطاء، واليوم فقط أُدرك أن هذه الأخطاء بالذات هي التي كلفتني ذلك الثمن الذي لا يمكنني تعويضه، بما تبقى لي من عافية في النفس وفي الجسد (يصعب عليّ أن أقول: بما تبقّى لي من عمر). وأقول "اليومَ فقط"، لأنني كنت عاجزاً في تلك اللحظات الحرجة عن إدراك معنى لتصرّفاتي، أو عن رصد هدف لها، أو عن تحديد أثر.

لكنني لا أقول هذا الكلام لأجترّ ألماً يجب أن أنساه، بل أقوله من باب العبرة والفائدة، وهو أمر لا يختلف فيه اثنان. أمّا العبرة والفائدة فلي شخصياً بالتأكيد، ولكن لغيري أيضاً، بل لغيري خاصة، فما حدث لي لن يتكرر، لأنه أمر يحدث للمرء الواحد مرّة واحدة فقط، ولأن تكراره مرة ثانية يجعل الحياة مستحيلة. واستحالة الحياة أمر خطير.

كانت وجوههم واضحة.

وكان بينهم الفة.

أمّا ما استغربته كثيراً فهو انهم لم يسألوني أولاً عن اسمي، ثم انهم لم يسألوني عنه فيما بعد، فكيف لا تهمهم معرفة اسم الشخص الذي يوجهون إليه السؤال، والذي يتوقعون منه أجوبة يكتشفون بواسطتها الحقيقة! فهل يجهلون، وهم أصحاب الخبرة، ما فائدة معرفة الاسم في مثل هذه الحالات، فاسم الشخص قد يوفر عليهم كل التعب. أفما يُحدِّد الاسمُ البقية! وكنت أترقب اللحظة المناسبة لأبوح لهم

باسمي، وكانوا دائماً يمنعونني عن ذلك، و لم أكن أدري ما السر في هذا التصرف، وما المغزى؟

- تفتح فمك حين يُطلب منك!

كنت أُجابه بهذه العبارة كلما بدا عليّ انني أهمّ بالكلام.

لماذا يَمنع السائلُ المسؤول عن البوح باسمه! هذا أمر لم يكن في مقدوري أن أدركه. فقلت ربما أن في الأمر حكمة، والعاقل من يلزم حدّه، فعدلت عن محاولاتي في البوح، وكان ذلك مؤلماً بالتأكيد، بل كان خانقاً، لكن هذه لم تكن المرة الأولى التي انصاع فيها لأحكام الظروف، فكثيراً ما يضطر المرء لـ "بلع" مفارقة، أو مفاجأة، أو سوء فهم، بل ربما اضطر لبلع إهانة أحياناً.

و لم يسألوني أيضاً عن عمري! وأنا، وعمري يكاد يبلغ مبلغاً، أحب عادة ألا أُسأل عنه، إنما للسنّ أيضاً أحكام، وله نوع من الاحترام. وكم وددت أن أقول لهم عمري، لكن من لا يسمح لي بالبوح باسمي فلماذا يسمح لي بالبوح بعمري.

- تفتح فمك حين يُطلب منك!

كانت تطلق عليّ هذه العبارة، كلما هممت بقول شيء من هذا الذي يُعتبر عدمُ قوله مخالفاً لمنطق الأشياء.

وبدا عليّ بوضوح أني انشَدّتْ من جديد قسمات وجهي، أمّا هم فلم يتغير فيهم شيء، بل داموا على حياد مشاعرهم. كانوا هنا، لكن بلا أي انفعال من أي نوع كان.

وما أدهشني كثيراً هو انّ أحداً منهم لم يقاطع أحداً، أو يخالفه الرأي، أو يوحِ إليه بأنه أخطأ، أو شيئاً من هذا.

أدهشني إذن ذلك، لكنني حاولت بالفعل والمنطق استيعاب دهشتي، كما حاولت دائماً من قبل – منذ دخولي – استيعاب المشاعر التي كانت تغلبني فتفرض نفسها عليّ، كالمفاجأة عند دخولهم، والانزعاج عند مقاطعة أحدهم لي، والاختناق لمنعه إياي من البوح باسمي وعمري، وإلخ. وقد ترك هذا العراك الدائم بيني وبين هذه المشاعر أثراً سيئاً في سلوكي بلا ريب، وكان له (– بالتالي) أثر في تطور الأحداث ووصولها إلى الحد الذي وصلتْ إليه.

وأنا، وأقولها بلا خجل، أخاف دوماً عَلَيَّ من مشاعري، فهي تقودني دوماً إلى حيث لا أرغب، وتنتهي بي إلى نهايات أقلُّ ما يقال فيها إنها ورطات مولِّدة لمشاعر ومشاكلِ مضنية. ولهذا السبب بالذات حرصت منذ اللحظة الأولى التي أُدخلتُ فيها إلى المكتب، على أن أبقى ذاتي، أي أن أبقى متزناً، رائقاً، هادئاً، متماسكاً، مشغِّلاً عقلي ومستنيراً بنوره. بل أكثر من ذلك، فقد حرصت منذ اللحظة الأولى، لا على أن أبدو طبيعياً، بل على أن أكون طبيعياً.

أن أكون طبيعياً!

وكنت مدركاً إدراكاً عميقاً وحادّاً، أن الفرق بين هاتين الحالتين (أن أبدو أو أن أكون) خطير جداً، مهما بدا للمتسرّع غير المتأمّل انه فرق واهٍ لا قيمة له.

وكانت هاتان الشميلتان، الطبيعية والعقل، أوّلَ ما كان عليّ وضعه

على المحك، منذ اللحظة الأولى التي وجدت فيها نفسي هنا: فقد فتح الرجل الذي كان يقودني، ممسكاً بزندي، بابَ المكتب، ودفعني دفعاً إلى داخله، وأغلق الباب تاركاً إياي وحدي.

"وكرامات الناس؟"

"وكرامات الناس؟" كدت أُطلق هذه العبارة بقوة، ليسمعها هذا الرجل الفظ الغليظ، عبر الباب الذي أغلقه للتوّ، لكنني تداركت أمري بسرعة (فما أقبح الغباء! وفي مثل هذه اللحظات الحرجة خاصة!)، فتوجهت إلى نفسي، خاطبتها، ونهرتها بصوت كاد أن يكون مسموعاً لشدة ما كان واضحاً وحازماً، قلت:

"رواق يا رجل!"

ثم كررتها ثانية بمزيد من الشدة، حتى كدت أسمعها كأنها طلقة نارية:

"رواق!"

فما زالت الأرض أرضاً، والشمس ما زالت تضيء، وما زال البشر كما هم دائماً، يخطئون ويصيبون. "رواق"!

وخلتُ وأنا أنهَر نفسي بهذه الكلمات، أن شفتيّ تتحركان بما يناسب أصواتها.

ثم بدأ كلّ شيء فيّ، بعد لحظات العزم هذه، ينصاع لي، ويستجيب كليّاً لإرادتي.

والآن، وبعدما صار الوضع بكامله تحت سيطرتي، قلت: عليّ أن

أجلس! فجلست.

كان في غرفة المكتب عدد من الكنبات الجلدية الفخمة، ثلاث أو أربع – لم أعد أذكر عددها بالتحديد – فجلست على التي كانت أقرب شيء إلى الشباك، مديراً له بذلك ظهري. وكان يدخل من هذا الشباك (الوحيد في الغرفة) عبر برداية بيضاء شفافة، ضوءٌ غزير ينير الغرفة بأكملها. وقد اخترت هذا المكان بالذات، عن قصد واضح وعن حكمة بعيدة، فأنا أعرف من قراءاتي ومن معاشرتي انّ على الزائر، إذا كان دون المستقبِل رتبةً وأهميةً، أن يجلس في المكان الذي ينير فيه الضوءُ وجهَه – أي عكس ما فعلتُ أنا – ليتسنى للآخر رؤيته بوضوح. وبهذه الطريقة التي اعتمدتها، أردت أن يُدرك مستقبِلي، بعفويّته إنْ لم يكن بوعيه، انه ليس في حضرة أحد هَمَلٍ متروك سدى.

اخترت إذن هذا المكان بالذات en connaisance de cause كما يقال بالفرنسية.

ثم إني أردت بهذا الخيار البرهانَ لنفسي – نعم لنفسي – أنه ليس بالصراخ الغاضب البدائي، كما ودّتْ هي – نفسي – أن تفعل، تُصان الكرامات، بل إن الكرامات تُصان بالأسلوب المناسب الحكيم، بالعقل. فلو اني تركتُ نفسي على سجيتها فأطلقت:

"والكرامات؟"

فسمعها هذا الرجل الذي دفعني إلى داخل الغرفة بهذه الطريقة (غير اللائقة بالتأكيد) لكان عاد إليّ وتعامل معي بمزيد من عدم اللياقة. بل ربما كان تخطّى حدود الكلام القاسي إلى الكلام المهين. أو ربما

كان تخطى حدود الكلام بالذات إلى أمور أخرى، قبيحة جداً، إلى الضرب مثلاً، أو إلى الركل بالرجل بلا وعي، وعلى أينما كان مني، من جسمي، على عظمة الساق مثلاً، أو على الركبة، أو على الخصيتين.

لسانك – يقول أجدادنا العرب – حصانك، إن صنتَه صانك!

فالغضب وإن كان نقيض الرضا (وأنا لم أكن راضياً بالطبع) مذموم. حتى لو كان في جانب الحق؟

نعم، أقولها الآن، حتى لو كان الغضب في جانب الحق فإنه مذموم. لقد علمتني ذلك تجربتي المريرة. (– نعم، كانت تجربةً، وكانت مريرةً، وأصفها بذلك بلا حرج، صراحةً!)

فلو أن هذا الرجل صفعني أو ركلني، لكان مارس حقاً استمده من الأوامر النارية المعطاة له من رؤسائه. بل لو اني صرخت به من أجل أن يعاملني باحترام، و لم يقابل صراخي بالقساوة المفروضة عليه قانوناً، لكان وضع نفسه في موقع من أخلّ بواجبه، وبات بذلك عرضةً للمعاقبة. فلو أن أحد رؤسائه الخالي الذهن الجاهل بما يجري، سمع صراخي مثلاً، ثم رآه لا يحرك ساكناً، فماذا كان فعل؟

جلست إذن كما يجلس كل إنسان يحترم نفسه ويحترم الآخرين. فالكنبة في مكان كهذا هي، ككل كرسي، للجلوس إذا كانت شاغرة.

جلست إذن ممارساً حقي كإنسان واقف في مكان خال إلا من الأماكن الشاغرة. لم أكن أدري لحظتها أن الراحة لن تعفيني فيما بعد من الجلوس. وألقيت ظهري على المسند، ووضعت رجلاً على رجل، ورحت أنتظر متفحِّصاً أنحاءَ الغرفة وأشياءها.

رحت إذن أنتظر.

لم يعد معي لسوء حظي جريدة، فقد نترها الذي كان يقودني إلى هنا نتراً من يدي قبل أن أصل إلى الباب، ولا أدري كيف لفتت نظره مع انه لم ينظر إليّ مدقِّقاً، بعدما تسلمني في هذا الممر المعتم، من الإثنين اللذين أدخلاني إلى هذا المبنى. و لم يفتّشني، ولا هما فتّشاني.

و لم يكن معي مجلة أو كتاب أو شيء أنصرف إلى قراءته. و لم يكن في المكان أيضاً شيء من هذا.

كان وراء المكتب مكتبة أنيقة من خشب، على رفوفها كتب سميكة، مجلدة تجليداً فخماً، ومحمية برفوف زجاج مقفلة. لكن عناوينها لم تكن بادية عليها، بل لم يكن بادياً عليها حرف ولا رقم. فما كانت إذن!؟ ملفات ربما!؟ ملفات سرية!؟ فعليّ إذن إذا كان الأمر كذلك أن أنساها، أن أعتبر انها ليست موجودة في المكان وأنّ نظري لم يقع عليها. (- فأيُّ شيء يقوم بلا سرّية، أي مؤسسة أو أي دولة أو أي حزب بل أي ناد! مش هيك؟)

ثم انتقل نظري بشكل عفوي إلى يدي. وكيف لا يقع نظري على يدي وأنا أجول به وأجول على كل ما في هذه الغرفة وعلى أشيائها شيئاً شيئاً وغرضاً غرضاً؟ وكيف لي أن ألوم نفسي على انقيادها لعفويتها هذه المرة، وهل هناك ما هو أكثر منطقية من أن تنظر أنت، وإن بلا قرار مسبق منك، إلى يدك وأنت منتظر ما أو من سيأتي؟

كان في يدي ساعة. ومن ليس في يده ساعة؟

لكني اعترف انها لم تكن كالساعات.

– أقولها صراحة الآن، أي في هذه اللحظات التي أنقل فيها ما جرى، اني لست واثقاً أبداً من أن هذا الأمر كان له أثر سلبي.

وأقول أيضاً في الوقت نفسه، وبعد طول نظر، إني لست واثقاً أبداً من أن أثره كان إيجابياً.

إن وجود الساعة هذه في يدي، لم يغير شيئاً – كما أظن اليوم – في الكيفية التي جرت بها الأمور، و لم يترك أي أثر فيها.)

كانت تلك الساعة من صنع اليابان، ماركة كاسيو، كوارتز، مقاومة للماء. وكان مسجلاً عليها في الأسفل عند حافتها قرب الإطار رقمٌ هو: 901A2-T18 تتبعه كلمة JAPAN ثم الحرف N، في شكل قوس موازٍ لإطار الساعة الذي كان دائرياً. وكانت حروف هذه الكتابة صغيرة جداً بحيث أنني عجزت عن تمييزها وقراءتها بالعين المجردة. وكأنها كانت كتابة سريّة. لكنني قرأتها فيما بعد، بعد خروجي سالماً (– أقول سالماً، لأن هذه هي الكلمة المناسبة، لأن ما جرى وإن لم يكن مسؤولية أحد ممن كانوا هناك، كاد أن يُودي بحياتي). أقول إذن قرأتها بعد خروجي سالماً، مستعيناً بمكبّر. وقد تنفست بعد أن قرأتها بعمق حتى انتفخت رئتاي بالهواء. كان شعوراً غريباً أوجد فيّ رغبة في شهق هواء كثير، ذلك لأني لم أرَ في هذه الأشياء الصغيرة المكتوبة أسفل هذه الساعة ما يدعو للريبة، فكيف خفت إذن أن يرتاب منها المحققون فيما لو اطلعوا عليها، وأن يشكّوا فيها، حتى لو افترضت فيهم كل النوايا السيئة!

(– هل تسميتهم بالمحققين خطأ؟)

فقد تأملت هذه الساعة كما لم أتأملها قط منذ اشتريتها قبل حوالي عامين، وكما لم أتأمل ساعة من قبل على الإطلاق، بل ربما كما لم أتأمّل شيئاً، فأنا لم أكن أحمل في تلك اللحظة "آلةً" (- إنْ شئت) غيرها.

ثم تنبهت وأنا ما أزال أتأملها أن زمناً طويلاً مضى، نصف ساعة ربما - لم أعد أذكر الآن - وما زلت جالساً أنتظر وحدي لا يفتح عليّ الباب أحد.

كان على طرف المكتب، من جهتي حيث أجلس، آلة هاتف، كانت قربي، في متناول يدي. حاولت كثيراً أن أحزر ما إذا كانت شغّالة أم لا، لكن كيف لي أن أحزر بغير أن أرفع السماعة وأقرّبها إلى أذني، وهذا ما لم أقم به، وما لم أندم عليه أبداً.

نصف ساعة من الوقت مضى ولم أعدّل في جلستي. لكنني فككت الساعة من يدي ورحت أقلّبها وأتأمّلها من كل جهاتها كان مكتوباً على قفاها المعدنية المعلومات البريئة التالية:

CASIO
371 Mo – 82
STAINLESS STEEL BACK
WATER RESISTANT
JAPAN C

أقول المعلومات البريئة، وأقصد المنتشرة، التي نراها كل يوم، بل كل لحظة، على أي شيء نقع عليه، وأينما كان، وكلها بهذا الحرف اللاتيني، وبالأرقام والنّمر وأسماء البلدان البعيدة والماركات الغريبة

والعلامات الطريفة، فأين مصدر الشبهة إذن... إلا... إلا إذا كانت هذه أو بعضها، رموزاً يفكّها المعنيون بها فقط، ليبلغوا أسراراً نجهل نحن الناس عنها كل شيء، ولكن... ولكن حتى في هذه الحالة أيضاً أستطيع القول ببراءة، انها بريئة، بمعنى انها متداولة ومنتشرة كالهواء، وبمعنى أنّ سرّها ليس لنا!

لم يكن معي جريدة ولا مجلة ولا كتاب ولا شيء أبداً انصرف إلى قراءته، فكان عليّ إذن أن أنتظر فقط. (- انتظار حافْ)

كان في الغرفة سجادة كبيرة وفخمة تغطي قسماً كبيراً من الأرض المفروشة كلها بالموكيت.

مكتبة ومكتب وكنبات، وموكيت فوقها سجادة، وحيطان مدهونة! إنها غرفة ناس classe بلا ريب، وهؤلاء لا داعي يدعوهم للأذى، وأنا لا موجب عندي لانشغال البال.

وكان كل شيء في هذه الغرفة نظيفاً أيضاً ونظيفاً جداً. وكانت ثيابي التي ألبسها نظيفة لحسن حظي، بحيث لم يكن لديّ داع للحرج، فقد تحمّمت في الصباح قبل خروجي من البيت، واستبدلت بثيابي الداخلية ثياباً أخرى بيضاء مهفهفة. أما الشيء الوحيد الذي قد يسبب لي حرجاً، فهو انني مشيت كثيراً، قبل أن أجد نفسي هنا في هذا المكتب، ورجلاي تعرقان بسرعة... لكن ما هذه إلا أفكار سوداء تجيئني نتيجة طبيعية لهذا الوضع الذي وجدت نفسي فيه بلا مقدمات أو إشارات مسبقة. وعلى كل حال فإن الأمور إذا بلغت هذا الحد فسيكون عليّ مجابهة حَرَج كثير. فأنا مثلاً أستحي أن أُبدي

عُرْيَ جسمي لغريب، رجُلاً كان هذا الغريب أو امرأة، فكيف إذن أُبديه هنا (كنت أظن أن الأمور – إنْ جرت – ستجري هنا فقط)، أنا الذي لا أذهب أبداً إلى بحر أو إلى مسبح بسبب هذا الحياء، بل إني في المناسبات الحميمة أطفئ الضوء أو أغلق منافذه.

ما هذه بالتأكيد إلا أفكار سوداء.

ومنذ صغري، وأنا لم أَبِنْ لأحد مهما كان قريباً، شيئاً حميماً منّي، حتى الطبيب حين تدعوني الحاجة إليه، احتال عليه فلا يُضطرُّني إلى الاسترسال في خلع ملابسي، فكيف يمكنني الإقدام على ذلك (وإنْ مرغماً) وأنا في هذه السن، أمام شباب مثل هؤلاء الذين تسلّموا أمري!

ثم إن أمثال هؤلاء المحققين الشباب، في مثل هذه الحالات، يطلبون من الذي يحققون معه الكثير الكثير. يطلبون منه مثلاً أَلا يُبقي عليه شيئاً يستر عرياً، نعم! حتى الكيلوت!

ثم انهم يطلبون منه أن يستدير.

ثم انه ما إن يستدير، حتى يقترب منه أحدهم، من خلف – يقترب كثيراً! بينما الآخرون يقتربون من أمام، حتى إذا ما حاول الإفلات ضربوه، ثم حتى إذا ما قام معه ميكانيكياً، غرزوا فيه مخارز مروّسة.

(– هذا طبّياً غير صحيح؟ يمكن!)

لكن وكما سبق أن قلت، فما هذه إلا هلوَسة وأفكار سوداء، تجيئني نتيجةً طبيعيةً للتوتر الذي أحدثته فيّ هذه الساعة من الانتظار.

ساعة إذن مضت، وأنا جالس أنتظر أن يدخل أحد يطرح عليّ

سؤالاً، أو استوضحه أنا الأمر إذا أمكن. فلم يأت أحد، بل لم يتناه إليّ صوت، أو صدى لصوت، أو أثر لإنس أو لجنّ. كنت أسمع فقط، لكن بوضوح مريب، حفيف ثيابي، عند حراكي، على جلد الكنبة التي كنت جالساً عليها.

لا بد أن يبدو غريباً للجاهل الخالي الذهن هذا المكان، الذي لا يبلغه أثر لضجة من هذه المدينة العامرة بالضجيج. لا سيارة ولا زمور ولا دراجة نارية ولا شيء على الإطلاق. وهو فيها - في هذه المدينة - في قلبها، في أحد شوارعها الرئيسية العامرة بالسيارات وبالمشاة، والوقت في عز النهار. (- كنت أعرف بالتحديد في أي بناية كنت).

وما زلت جالساً وقد مضت ساعة ونصف ساعة، كنت أثناءها لا أتحرك إلا لأرفع رجلاً عن رجل، أو لأضع رجلاً على رجل. وحتى بهذا كنت مقتصداً.

ثم انه ليس سهلاً على الإنسان أن يبقى جالساً طوال هذا الوقت، بلا شيء يشغله، كجريدة يقرؤها مثلاً، أو كتاب، أو شاشة تلفزيون، أو حديث، أو أي شيء آخر، وهو ليس جالساً وحسب، بل جالس ينتظر، وأي انتظار!

وأنا إذ أقول هذا الكلام، فلا أقصد منه التبرم أو التذمر أو وصف عذاب تعذبته، بل أقصد منه إعطاء فكرة عن الجو الذي كنت فيه - الجو الضاغط - الذي سهّل عليّ القيام بما قمت به، والذي منعني من تقدير ما يمكن أن ينتج عن الخطوات التي كنت أخطوها، والأخطار التي قد تترتب عليها. وباختصار، فإني في هذا الجو بالذات ارتكبت

ذلك الخطأ الآخر – الخطأ الكبير – الذي لا يمكن أن يغفره آدمي لآدمي، والذي إن غفرته لنفسي فإني لا يمكن أن أنساه. فمنذ دخولي إلى هذه الغرفة وأنا أنجح في التغلب على رغبتي في التدخين، والعلبة في جيبي ملآنة. وكان قصدي من قمع رغبتي هذه، ضرب عصفورين بحجر واحد: فالتدخين مضرّ بالصحة، حسب الكلام الغالب هذه الأيام، وعليّ التوقف عنه عاجلاً أم آجلاً، وهذه الآن مناسبة إن لم يكن للبدء فللتعوّد، ثم إن الغرفة مقفلة ولا نافذة لها بادية على الأقل، والتدخين سيجعل فضاءها يصعب التنفس فيه على الداخل رأساً إليها – وهنا بيت القصيد: سينقطع نَفَسُ الداخل إليها، وسيغضب عن حق! كمن ضربتَه على باب معدته وهو ساهٍ، فالأمر يلامس ربما مسألة الموت والحياة.

وفوق هذه الأسباب السابقة، هناك أسباب لا تقل أهمية عنها، مهما بدت خلاف ذلك للوهلة الأولى: أن الزمن الذي كان التدخين فيه شَوْفة نفس قد ولّى، وبات المدخن اليوم كأنه مريض، بل هو مريض يحتاج إلى عناية خاصة، وهذا تماماً ما كنت أجهد بوعي وحسبان حتى لا أظهر به، أي: ضعيف الإرادة أَنقادُ لعفويتي وغرائزيٍّ، بدل أن أكون مسيطراً عليها. إن هذا ما سيقلل من احترام الذين سألقاهم لي، إن لم يفقدني إياه، بينما أنا في حاجة مصيرية إليه – هذا الاحترام – كاملاً، فبدونه سأجد نفسي في وضع ربما لن يحسدني عليه أكثر الناس شقاء.

ساعتان وأنا أقاوم رغبتي التي تزداد إلحاحاً عليّ بالتدخين.

ساعتان وأنا أقلّب ساعتي بين يدي، وأتصرف بها كما أتصرف بسبحة.

وفجأةً، وكما حين يلسعك تيارٌ كهربائي، شغل بالي أنّ أرقام هذه الساعة مكتوبةٌ بالعربية!

نعم بالعربية! خلافاً للساعات التي يضعها الناس جميعاً!

كلّ ساعات العرب جميعاً، والعالم قاطبة، مكتوبة بالأرقام الأجنبية، إلا ساعتي.

وهذا أمر لم أكن أجهله بالتأكيد، لأني أنا الذي اخترتها و لم أختر غيرها، وأنا الذي اشتريتها و لم أشترِ غيرها، فلمّا رأيتها في إحدى الواجهات لفتت نظري، ووجدتُ فكرتها originale وسعرها رخيصاً، وكنت بحاجة إلى ساعة فاشتريتها. ثم اعتدت عليها مع الأيام، وغابت ميزتها هذه عن بالي. وقد حصل الشيء ذاته أيضاً لأصحابي ومعشري، فلم تعد تلفت نظرهم، و لم تعد تثير لديهم أي تعليق. لكنها والحق يقال، أثارت تساؤلاتهم كثيراً في البدء، وألحّوا عليّ كثيراً بأسئلتهم، وكلهم أصحابي ومعشري وبعضهم أقرب الناس إليّ. كانوا يريدون مني أن أوضح لهم السبب الحقيقي الذي دفعني إلى شرائها. نعم، السبب الحقيقي. فكم كان يؤلمني هذا: إلحاح أصدقائي على معرفة السبب الحقيقي لشرائي لها. و لم يكن يرضيهم جوابي بأني، بكل بساطة، وجدتُ فكرتها طريفة، وأنها أرخص بكثير من الساعات الأخرى، التي كانت معروضة معها، والتي يحملون هم أمثالها. بل أذكر الآن، بحسرة، أن أحدهم سألني – وإن ممازحاً – عمّا إذا كان السبب الحقيقي يكمن في مشاعري العروبية، فتعمّدت أن أجيبه، بابتسامة أيضاً، لكن وسط ضحك الجميع وإعجابهم بلطافة ملاحظته، بأنّ هذه المشاعر لم تخطر على بالي أبداً عندما اشتريتها.

وسألني عمّا إذا كانت هي الدافع اللاواعي، فقلت إني لا أستطيع الجزم في هذا الأمر، لا سلباً ولا إيجاباً.

ثم نسي أصحابي أرقام ساعتي بعدما اعتادوا عليها، إلا... إلا أحياناً، وفي أوقات متباعدة.

ثم، والحق يقال، ما من أحد، قريب أو بعيد، يراها أول مرة إلا تلفت نظره. ومنهم من يبدي ذلك صراحة، ومنهم من يذهب إلى أبعد من هذا فيروح يسأل، ومنهم من يُضمِّن سؤاله الجواب... أقصد عروبية الأسباب. بل حدث مرة أن أحداً أوحى بسؤاله أن وراء شرائي لها شيئاً من التعصب القومي.

لم يكن سهلاً عليّ تجاوز هذه الصدمة الناتجة عن ملاحظتي أرقام ساعتي، لأن ما يترتب على إثارة هذا الموضوع من قِبَل المحققين قد يكون خطيراً جداً، وذلك ليس لأنهم لا يتمتعون بهذه المشاعر العروبية التي يتمتع بها كل عربي مخلص، بل لأن هذه المشاعر أداة توحيد وفرقة في ذات الوقت.

لكن كان عليّ تجاوز هذه الصدمة، لئلا يصبح الوضع مستحيلاً، وهكذا تابعت تقليب الساعة محاولاً أن أنسى، إلى أن تنبّهت إلى أن كلمة JAPAN مدونة ثلاث مرات في ثلاثة مواضع مختلفة. الموضع الأول أسفل صحنها، والموضع الثاني على قفاها، والموضع الثالث داخل حلقة الرباط. ثم قلت إن هذه الملاحظة لا تستحق بالفعل أن تذكر، لكنني رغم حكمي عليها بالتفاهة، أحسست أنها آتية من أعماقٍ ما، وقلت إن ثلاث مرات كلمة JAPAN على هذا الغرض

الصغير، شيء كثير، أكثر من اللازم، غير طبيعي، (trop c'est trop!)

وكان الوقت ما زال يتقدم، وكنت ما أزال جالساً أتحرك فقط حين أُنزل رجلاً عن رجل، أو حين أضع رجلاً على رجل، وكان اقتصادي في الحراك عن قصد واضح ومدروس: كنت أريد أن يكون انطباعهم عني إيجابياً حين يدخلون، فالانطباع الأول مهمّ، لأنهم إذا ما رأوني المرة الأولى كثير الحراك، فربما ظنوني متوتراً، فتساءلوا عند ذاك عن السبب، وافترضوا الفرضيات، وتعاملوا معي على أساسها، ثم أن الثبات في الجلوس يوحي بالرزانة والاتزان، بل برفعة النسب أيضاً.

وكنت أَنتبه فجأة، وأنا ما زلت أنتظر، إلى أنني هنا، أنتظر.

والغريب أنني كنت دائماً أنتبه فجأة، حتى ولو كان انتباهي يحدث مرة في كل لحظة. ودام الأمر هكذا إلى أن حدث ذلك التحول الرهيب، أقصد في الضوء.

لقد تحوّل الضوء

تحوّل الضوء تحولاً عظيماً، وأنا مستغرق في هذه الكتابات والأرقام.

كأنْ فجأة.

كأنِ انحدرت الشمسُ فجأة وراء بناية حجبت نورها. وبدا لي مع هذا التحول الخطير، انّ كل ما كنت أفكر فيه من قبل كان تفاهات، وأنه بات عليّ الآن مجابهة الواقع مباشرة، بدل إضاعة الوقت بهذه السخافات التي كنت أتلهى بها، كتأمل الساعة مثلاً، بل بأشياء أتفه من ذلك، كتأمل الحذاء الذي أضعت وقتاً طويلاً في تفحصه، والذي

لفت نظري فيه كثيراً، بل أقول بلا مواربة: أزعجني فيه كثيراً كون نعله سميكاً يَحْوِي عند أوّل كعبه جيباً هوائياً، يختلف لونها AIRGUM عن لون بقية النعل، فتبدو لذلك للعين، من جهة اليمين ومن جهة اليسار، فوراً وبلا عناء. وكان هذا فقط كل ما يمكن أن يلفت النظر في هذا الحذاء، وأما باقي ما فيه فكان خالياً من كل ميزة. لكن هناك ميزة أخرى – إن جازت تسميتها ميزة – ليست فيه، بل في ظروف حصولي عليه، فأنا لم أشتره بل جاءني هدية من الخارج، لكن ليس من أجانب، بل من صديق لي مقيم في الخارج، بداعي العمل لا عن طيب خاطر، أو عن حاجة أخرى، فليس في الأمر إذن ما يدعو إلى كتمان شيء، وها أنذا على استعداد لأصرح فوراً، لحظة يُثار فيها الموضوع، بكل ما لديّ عن الأمر كله، بلا حرج أو تردد، خاصة – وهذا ما عليّ ألا أنساه أبداً، حتى في حال لم يجئ أحد منهم على ذكره – خاصة أن الشخص الذي حمله معه إليّ من الخارج، لم يكن صديقاً لي، ولا صديقاً لصديقي، بل صديقاً لأحد معارف صديقي، ثم انه لم يجدني في بيتي حين جاء يوصله إليّ (أين كنت إذن؟) فاستودَعَهُ صاحبَ الدكان في البناية التي أسكن فيها. لم أره.

لم أرَ هذا الرجل، أو هذه المرأة، أو هذا الشخص بالأحرى، و لم أعرف اسمه، و لم أعرف بالطبع عمره أو شيئاً آخر عنه، فهو بالنسبة إليّ كأنه لم يكن. بلى!

بلى قد عرفت عنه شيئاً! بل عنها لقد استرجعتُ الآن كل شيء، فحين ناولني صاحب الدكان الحذاء، سألته عن الشخص الذي أوصله، فقال انها كانت امرأة، فسألته كثيراً عنها، فقال إنها في الثلاثينيات

من العمر، مائلة إلى السمرة، متوسطة الطول، جميلة الوجه – قالها مبتسماً – والقدُّ أيضاً، كاد هنا يضحك. وقال إنها سألته إن كان يراني دائماً، وإن كان باستطاعتها أن تترك عنده هذه العلبة التي فيها حذاء لي، لأنها لم تجدني في بيتي، فأجابها مرحّباً: "نعم بالتأكيد!" قالها وابتسم مرّة أخرى.

لا أدري ما الذي يدعوني إلى التفكير في أمري كأني موقوف لأمر خطير، أو كأني سأخضع قريباً جداً لاستجواب دقيق، يُجريه معي محقق خبير وطاغية. لا أدري ما الداعي إلى هذا التشاؤم المفرط، بينما كلُّ ما يجري حولي يدعوني إلى مجابهة الواقع مباشرة وبثقة وتفاؤل، بدل الاسترسال في هذه الأفكار السوداء، التي تبدو بلا أساس إذا ما دُقق فيها على ضوء التفكير العقلاني المجرد.

والساعة تقدمت كثيراً. كثيراً جداً. أكثر من ساعتين، بل ربما – ومن يدري – أكثر من ثلاث ساعات، فلم أعد أستطيع تحديد الوقت أبداً لأني، وأنا أقلّب هذه الساعة بيدي وأتصرف بها كالسبحة، لا بد أن أكون حَرَّكْتُ الزنبرك، فتقدمتْ عقاربها (أو تأخّرت)، و لم أعد قادراً على تحديد الوقت لضبط العقارب من جديد، لأني لم أنتبه للحظة التي حدث فيها ذلك، و لم أنتبه للأمر بعد أن تحوّل الضوء، وكان تحوله مرعباً، وفجأةً.

ظننت أولاً أني غفوت سهواً وأن الشمس غابت أثناء هذه الغفوة. وما جعلني أظن ذلك أني كنت أحس من وقت إلى آخر ببعض النعاس وأنا على هذه الكنبة أنتظر منذ وقت طويل، لكنني كنت دائماً أمنع نفسي من النوم لأن فيه، في مناسبة كهذه، كثيراً من قلة الاحترام.

ظننت إذن إني غفوت طويلاً بلا أن أدري، لكني بعد لحظة استدراك تأكدت بأني لم أُغمض عينيّ لحظة واحدة. كنت أكيداً من ذلك. ثم إن هذا النعاس الذي كنت أشعر به، لم يكن في الواقع نعاساً فعلياً، بل كان نوعاً من الخدَر الناتج عن عدم الحراك فترة طويلة.

صحيح أن الغرفة كانت هادئة جداً وهذا ما يساعد على الاسترخاء، لكن هذا القلق الذي كان يعمق شيئاً فشيئاً، والذي كنت أنجح في الانتصار عليه، كان مانعاً لي بلا ريب من الغفلة والنوم.

وفجأة وجدت نفسي ناهضاً عن الكنبة، واقفاً على رجليّ، لأرتكب بذلك الخطأ الآخر الذي لا أدري كيف أصفه. لكن الخطأ هذا لم يكن في الأخير الأخير، وبعد تدقيق النظر، في الوقوف بحد ذاته، بل في كون هذا الوقوف حدث فجأة، كأن وحده، بلا قرار مسبق مني، وقد روّضت نفسي رويدا رويدا، طوال هذه المرة التي أنا فيها هنا، على ألا تفاجئني نفسي بشيء، بل أن تكون كلُّ حركة أقوم بها نتيجة قرارٍ واعٍ ومدروس، ومقررٍ سلفاً، بكل دقائقه وتفاصيله، ومراحله، وخاصةً لحظة التنفيذ. وقد نجحت في كل شيء عملياً حتى لحظة نهوضي هذه، فبالإضافة مثلاً إلى كوني لم أدخّن، فإني لم أُخرِج من جيبي علبة الدخان إطلاقاً، كما أُخرجها عادةً عندما أُمانع رغبتي في التدخين، لئلا يدخل أحد فجأة ويراها في يدي، وكان لهذا القرار الناجح أسباب درستها مسبقاً بتأنَ، وتأملت في أبعادها كاملة، فتحصّل لديّ أن علبة الدخان التي احملها أميركية الصنع من نوع مارلبورو، وهو أكثر أنواع الدخان شعبية في لبنان (– أقصد بالشعبية الاستهلاك)، فرؤيتها في يدي من قِبَل الداخل فجأة إلى الغرفة، تدفعه

إلى مماثلتي عفوياً مع الآخرين، وإلى اعتباري واحداً من هذا الكمِّ الذي لا يُحصى، واحداً من هذه الأعداد الهائلة، حبةَ رمل على شاطئ أو في صحراء، لا يميّزها عن غيرها إلا النظر الدقيق، وهذا ما سيدفعه بالتالي وبلا أدنى شك إلى معاملتي بما يتناسب مع هذا الاعتبار، أي كمخلوق هَمَل ضارب في الأرض بلا جدوى. (لم يخطر في بالي أبداً من قبل، أن تكون السيجارة تساوي إلى هذا الحد بين الناس – كيف أن الأفكار تجيء إذا أراد الإنسان أن يفكّر! وكيف انها تجيء إذا أرادها أن تجيء!) فقررت إذن أنّ تناول علبة الدخان من جيبي وإمساكها بيدي ليس في صالحي، وعملتُ بدقة بهذا القرار. وما جرى على العلبة جرى أيضاً على القداحة، وفي القداحة فوق ما في العلبة النار.

نعم، في القداحة النار!

المهم إذن انني فجأة، نهضت عفواً، ووقفت. ولا معنى بعد ذلك لكوني أستطيع أن أجلس إذا شئت من جديد، قبل أن يفاجئني أحد، أي لا معنى لكون وقوفي العفوي غير المدروس لم يشكّل خطراً مباشراً عليّ، لأن الخطورة هي في وقوع الخطأ بالذات، لا في أهميته أو في أهمية النتائج المترتبة عليه.

لكن، ورغم كل شيء، فإن هذا الوقوف الناتج عن الهلع (– تجب تسمية الأشياء بأسمائها. ما هيك؟) الذي عصف بي فجأة اثر تحول الضوء، كان نقطة تحول أساسية في مسيرة الأشياء التي بدأت منذ أن أُدخلت إلى هذا المكان. فبعد فترة التردد التي لم تدم طويلاً قلت: الآن وقد وقع الخطأ فلأحاول الإفادة منه. (غريب كيف تتطور الأشياء أحياناً، في اتجاهات لا يمكن توقعها، بلا أن يكون لنا فيها يد). فتقدمتُ

خطوة لكن ليس في اتجاه محدد (كنت واعياً للأمر وعياً تاماً)، وتقدمت خطوة ثانية، وخطوة ثالثة، بهدف أن يتحرك جسمي قليلاً فيزول الوجع الناتج عن عدم الحركة، ثم تمطّيت واستدرت إلى الوراء لأستقبل الشباك وأُديمَ النظر فيه علّي أرى ما وراء البرداية البيضاء، لكنني لم أتميّز شيئاً. غريب فالبرداية بيضاء وشفافة، وكمّية الضوء التي تدخل عبرها ما تزال كافية لرؤية كل شيء بوضوح، رغم هذا التحول الذي أثار فيّ الهلع. فماذا وراء الشباك إذن؟

إن الهلع مهما كانت أسبابه ودواعيه، مذموم ومرفوض، لأنه بكل بساطة، يُبطل فعل العقل، ويشلّ التفكير العلمي الموضوعي، ويُحدث الضرر الذي لا يمكن إصلاحه، وهذا ما حضر سريعاً في ذهني لحسن حظي، بوضوح، وما على أساسه تصرفت.

ماذا وراء الشباك؟

تواجهني الآن إذن مهمة واضحة محدّدة، (فرضت نفسها كذلك، بغير أن يكون لي في الأمر دور)، وهذا ما شكّل تحولاً نوعياً في الوضع الذي كنت فيه، إذ انتقلتُ إلى محلة أخرى مختلفة عن السابق عندما كنت أسعى (في ذهني) بل هدف.

ولم يكن قصدي من وراء هذا الهدف الذي رأيت نفسي موضوعاً أمامه، أن أعرف المجهول أو أن اكتشف المستور أو أن افتضح السرّ، لا أبداً، فلم أكن أنوي الهرب مثلاً، ولم أكن بالتأكيد أخبئ مفاجأة، إنما كان هذا فقط من باب الحشرية الطبيعية، إن ألف باء الأشياء تُملي على الإنسان تحديد المكان الذي هو فيه، حتى وإن

لم يَرِدْ في باله أن يبادر بأي حركة من أي نوع كان.

وبناء عليه اتخذت القرار.

وكان قراراً واضحاً يقضي فقط بالتقدم نحو الشباك حتى بلوغه، ثم النظر عبره، لمعرفة ما في الخارج. وكان هذا القرار، البسيط جداً من حيث الجهد الجسماني، ومن حيث الوقت الذي يحتاجه، أمراً يستدعي الكثير الكثير من الجرأة والحذر معاً. فكان عليّ أولاً، لأستطيع بلوغ الشباك، أن أدور حول الكنبة، وأن أجتاز مسافة تتعدى المترين، معرّضاً بذلك نفسي لأن يفاجئني الداخل فجأة إلى الغرفة، وأنا في هذا الوضع المريب... فمن الطبيعي حينئذ أن يتساءل عن مغزى هذا التصرف، الذي لا يشبه تصرف من ينتظر أن يُحقّق معه بعد حادثة خطيرة، فأُصبح هكذا باعثاً لمزيد من الشكوك (الحادة هذه المرة)، وذلك في وقت أنا فيه شديد الحاجة إلى إبعاد الظن عني، وإلى إبعاد أي سبب يمكن أن يشكّل حجة تسمح لهم بتأسيس ظنهم على برهان (حسّي خاصةً!) وتحويل هذا الظن إلى حالة قبض على الفاعل بالجرم المشهود. فلنتصوّر مثلاً أني أصبحت وراء الكنبة على بعد خطوات فقط من الشبّاك، أتقدم بالحذر الذي تفرضه المناسبة، ودخل أحد وسألني (بعد أن يكون اضطرب في سرّه بالتأكيد - وعاقبة هذا خطيرة علي - لأنه لم يكن يتوقع أن يرى الذي هو آتٍ للتحقيق معه في هذا الوضع)، وسألني إذن: "ماذا تفعل هناك؟" فبماذا أجيبه؟ ماذا أقول له؟ فهل أستطيع مثلاً أن أُفصح عن قصدي؟ أَمَا أكون وضعت نفسي في موقف حرج جداً، بل خطير جداً، أنا الذي قررت منذ اللحظة الأولى أن تكون الحقيقة رائدي ومطلبي ومبتغاي!؟ فلماذا إذن أُقدم

على الممنوع؟ ولماذا آتي على المحظّر؟ وأي معتوه سيصدّق انّ ذلك كان من باب الحشرية فقط؟ وهل كان ذاك فعلاً من باب الحشرية؟ وهل إذا ما كذبت على نفسي وصدقّتها أستطيع الكذب على الآخرين وخداعهم ليصدقوني (وأي آخرين!) ورغم ذلك تقدمت نحو الشباك، حاسباً جميع الاحتمالات وكيفية مجابهتها، متّكلاً في الأساس على اقتناعي الراسخ ببراءتي من كل ما أدى إلى وصولي إلى هذا المكان. وأقول براءتي والأصح أن أقول: خلوّ ذهني، لأن كلمة براءة قد تذكر بضدها الذنب.

كان القرار إذن بالتقدم حسّاساً وحرِجاً، وكان اتخاذه يتطلب، كما ذكرت، كمية من الشجاعة الأدبية لا أعتقد أنها متيسرة لأي كان، خاصة إذا ما أخذنا بالاعتبار أنه كان لدي الخيار الآخر، البديهي، اقصد العودة إلى الجلوس على الكنبة حيث كنت جالساً، والبقاء فيها بلا حراك، إلى أن يحدث شيءٌ ليس لي في حدوثه أي مسؤولية، كقدوم أحد عليّ مثلاً، أو شيء من هذا. وكان هذا الحل شديد الإغراء لسهولته وبساطته، ولخلوه خاصة من أي مخاطرة. بل كان عدم اختياري له بحد ذاته خطوة جريئة جداً (كل شجاعة نسبية).

لم أَمَسّ البرداية عندما بلغتها، بل وقفت فقط أمامها أتطلع عبرها محاولاً أن أتعرف على شيء ما في الخارج، ومحاذراً في الوقت نفسه أن أَمَسَّها أو أن يمَسَها شيء من جسمي أو من ثيابي – لأني في كل الحالات أنا المسؤول. و لم يكن هذا الحذر من البرداية عن ظن خاص بها، بأنها فخ مثلاً أو انها تخفي فخاً، أو انها وُضعت هنا لغرض آخر غير الذي صُنعت له في الأصل، بل كان هذا الحذر جزءاً من الحذر

العام، الذي اعتمدتُه مبدأً لسلوكي في هذه الغرفة، منذ أن أُدخلتُ إليها، وهو في الواقع مبدأ دائم عندي في الحياة عامة، وهو أيضاً أساس ابني عليه تعاطيّ مع ممتلكات الآخرين وأشيائهم، لأن في ذلك كما اعتقدت دائماً، احتراماً لشخصهم بالذات، وهو حق لهم وواجب عليّ. وهذه طريقة، اعتبرتها دائماً فضلى، لجعل الآخرين يعاملونني بالاحترام الذي أطلب أن أُعامل به.

لم أستطع أن أتبيّن شيئاً في الخارج أبداً، وكأنّ هذه البرداية تتقدم قطعة من ضوء وليس شبّاكاً. وكأن هذه القطعة الضوئية التي هي بمساحة الشباك موضوعةٌ وضعا في الحائط وراء البرداية مكان الشباك، وبحجمه تماماً، طولاً وعرضاً وعُمقاً.

والأهم من كل هذا، أنها لم تكن شفافة فتسمح بالنظر عبرها، بل كانت بيضاء كلوح ثلج وحسب. فمن أين يأتي هذا الضوء؟ من الكهرباء إذن وليس من الخارج عبر الشباك؟ وهل كنتُ غافلاً إلى هذا الحد طوال هذا الوقت؟ ورحت أجهد مغمِضاً عينيّ لأستعيد حالة الضوء كيف كانت عندما أُدخلتُ إلى الغرفةَ. أكان مصدره شمساً أم كهرباء. وهل كان للأشياء ظلٌّ صريح، أم أن ظلّها كان مختبئاً فيها نتيجة إنارة اصطناعية مدروسة. فأين أنا إذن؟ أقصد ما طبيعة المكان الذي أنا فيه، أَغرفةٌ عادية في بيت ما خُصِّصت لتكون مكتبة، أم انها مكتب عمل، أم ماذا؟ بل هي أقرب، قياساً على ما سبق أنْ رأيته من غرف ومكاتب، إلى أن تكون مكتبَ محام. تبسّمْتُ حين وردت على بالي هذه الفكرة.

غريب!

أين أنا إذن؟ أقصد ما طبيعة المكان الذي وُضعتُ فيه، وكيف يسمّى، وهل هو فوق الأرض أم تحتها، وعلى أي عمق، وهل يبلغه الهواء النقي والضوء، وهل.. وهل... وانهمرت عليّ هذه الأسئلة، التي يهدّ كل واحد منها بمفرده جبلاً، فكيف بها مجتمعة؟

– أبْعِد عنك الظن يا رجل! تماسَكْ! تصرف كالناس، كأولاد الناس فما هي إلا شدّة وتنقضي، أو سوء فهم ويزول. وما أن تتوضح الأسباب، حتى تصبح خارجاً تسعى في هذه الشمس الربيعية، حيث تشاء. جابه.

صحيح، عليّ ألا أستسلم بل أن أجابه، خاصة أن ما علي مجابهته الآن واضح ومحدد، ثم انه يهمني فعلاً، وبغض النظر عن الظروف التي أوصلتني إلى هنا، يهمني أن أعرف أين أنا، وما الذي جرى للضوء، وكيف كان عندما دخلت، وهل تحوّل بالفعل، وأين مصدره الآن. وإنَّ هذه التساؤلات تستفزّ ذكائي، بل ثقتي بنفسي، فهل يجوز أن يحصل كل الذي حصل بلا أن أكون على بيّنة من شيء، كأنني "بِيسَة" مخبأة في كيس، وإذا كان لغيابي عن أشياء كثيرة منذ وجودي هنا عذر، فإن غيابي عن أمر الضوء لا عذر له أبداً، فما كانت طبيعته، وإلى ماذا تحوّل، وكيف؟ وقد كان عند دخولي قوياً وواضحاً ويُبهج القلب، لقد أبهج قلبي لا أنسى ذلك أبداً، لأنه كان الإشارة لي – من أول لحظة – بأني بريء، وبأن ما يجري ما هو إلا سوء فهم، وشيء خطأ سيتم تصحيحه سريعاً، فالمذنب لا يُودع في مكان كهذا، يشعّ بالضوء والوضوح (– لا أقول هذا الكلام من باب الحق بل من باب الواقع)، بل أجرؤ على القول بأن إيداعي هنا يَشي بشيء من الشعور

بالذنب، عند من أعطى الأمر بِكَمْشِي (بالقبض عليّ)، أو بشيء من التردد على الأقل، وهذا بذاته ايجابي جداً. فكيف إذن تحوّل الضوء وما الذي جرى وهل تحول فعلاً. أليس في إمكاني أن أتذكر ما إذا كان للأشياء ظلّ ناتج عن ضوء الشمس أو عن ضوء آخر كهربائي مثلاً، وهل يوجد ضوء خارج عن هذين المصدرين؟

وما زلت واقفاً أتأمل هذا الشيء الذي تتقدمه البرداية، والمفترض فيه أن يكون شبّاكاً، وهو ليس شباكاً، بينما تجيئني هذه الأفكار التي تثيرها رغبتي الملحّة في معرفة ما يجري حولي. وجاءتني أفكار لا تحصى، كان منها الجيد، وكان منها الأقل جودة، وكان منها الرديء، لكن فكرة واحدة منها كانت رائعة، بل عبقرية، وكان مفادها أنه عليّ الفصل بين رغبتي في معرفة المكان وكنهه كمكان، وبين طبيعة وجودي فيه ورغبتي في الخروج منه، فهذا يساعدني على الانصراف كلياً إلى أمور تقنية بحتة بعيدة عن العواطف والمشاعر كالخوف والهلع والضيق ونفاد الصبر وإلخ، ويبقيني سوياً متماسكاً قابضاً على أموري قائداً لها غير منقاد. فحين تستغرقني مثلاً معرفة موقع الغرفة من المبنى، أنسى انني أنتظر، وكذلك فحين أحاول حلّ معضلة طبيعة الضوء الذي ينير الغرفة، أنسى المحقق المنتظر، وهكذا فالاستغراق في التفاصيل التقنية ينسيني القلق، فأنتصر بالتالي عليه.

كانت هذه الأفكار ناجحة جداً، وكان أثرها طيِّبًا، فقد أبعدتني عن الأفكار السوداء التي بدأت تجتاحني، والتي بدأتُ معها أفقد السيطرة على نفسي وهو أمر كان، لو حدث، أودَى بي إلى الهلاك، بل أودى بهم أيضاً، لأنه كان جرّهم جرّاً إلى الخطأ، وكنت أنا عندذاك المسؤول.

وفجأةً انطفأ الضوء!

انطفأ الضوء وحلّ في الغرفة ظلام كلّي.

أنا ما ادّعيت الشجاعة يوماً أبداً، ولم أهوَ ادّعاءها مرّةً، لكنني تمالكت نفسي! اقصد أنني أمسكت بأمري وبنفسي جيداً، وبقيتُ واقفاً كما أنا، فلم اضطرب (أقصد لم أضطرب إلى حد الذعر)، ولم آتِ بحركة ندمتُ عليها فيما بعد، بل تصرّفت بأرستقراطية وفروسية نادرتين.

كانت العتمة، فجأةً، لو أغمضتُ عينيّ أو فتحتهما لا فرق. وفي جيبي قداحة وعلبة دخان، فتناولت أولاً علبة الدخان، سحبت منها سيجارة، ثم تناولت القداحة وأشعلت بها السيجارة، ومججت منها مجة عميقة، بينما القداحة ما تزال في يدي والعة، أتفحص على ضوئها الغرفة، فلا تقع عيني إلا على الأشياء ذاتها التي كنت أراها في الضوء، لكنها الآن أكثر وحشة.

أبقيت القداحة والعة حتى استطعت على ضوئها بلوغ الكنبة من جانبها الأمامي والجلوس عليها. وبعد أن استقريت فيها مطمئناً إلى سلامتي الجسدية والنفسية، أطفأت النار لتلمع جمرة السيجارة وحدها في هذه العتمة الصارمة.

ثم وضعت رِجلاً على رجل.

لكنني، وعن عمد، لم أسمح لنفسي، بأن تسترسل في التفكير على سجيتها، بل قررتُ، وبوعي حاد، أن أتأمّل نار السيجارة فقط. فلِمَ الهلع وفقدان السيطرة على الذات، ما فائدة ذلك، خاصة أن الخطأ

الآن مميت، فلو تركتُ نفسي على سجيتها لكنت اضطربتُ كسمكة أُخرجتْ من الماء، أو كطير يُذبح، فكنت حوّلت نظام الغرفة إلى فوضى، وربما كنتُ كسرت أشياء، أو أتلفتها، أو ربما كنت كسرت شيئاً فيّ، في جسمي، فلا أحد يعرف كيف تتطور الأمور عندما تكون الساعةُ مسكونةً بفوضَى ما قبلَ الموت (– هل قلتُ الموت؟ ما زلّة اللسان هذه؟)، فقلت عليك إذن يا رجل أن تتفادى مسبقاً كل هذه الأخطاء التي، في حال وقوعها، لا ينفع معها الندم.

– ركزْ على جمرة السيجارة. ركِّزْ عليها وحدها!

فثبتُّ عينيّ فيها. ركّزت عليها. وتركتها تستغرق نفسي استغراقاً كلياً، ودائماً، فاكتشفتُ انها في حركة نبض دائم كأنّ لها رئة ناشطة، واكتشفت أن شيئاً ما فيها ينفجر من تلقاء نفسه بين حين وآخر فيُسمع انفجاره ويُرى وهجه. ثم اكتشفت فيها ما أدهشني، انها بالفعل عالم آخر، مدهش بما يحدث فيه في غفلة منّا. وهو على صغره الظاهر، عالم ضخم كبير هائل، بحيث أنه يبدو، بعد إطالة النظر فيه، قارةً من نار، كوناً، على رأس سيجارة متواضعة. وبالفعل كانت الغرفة تضيق أحياناً بهذا الكون، فيكاد من قوة انطلاقه في كل الجهات، أن يُبعد الحيطان عن بعضها، وأحياناً كان يخبو ليعود جمرةً صغيرة وحسب.

لا تدوم لحظة هانئة.

فأين أنفض رماد السيجارة! كانت مخيلتي سابحة متمتعة بهذا العالم المدهش، عندما تنبهتُ إلى هذه المشكلة. صارت سيجارتي على ما أعتقد في منتصفها، فهل في الغرفة منفضة؟ وكما رحت منذ فترة،

أتذكر كيف كان الضوء، وكيف كانت الظلال، عندما أُدخلت إلى الغرفة، رحت أتذكر الآن، ما إذا كنت رأيت منفضة وأنا أتلهّى بتأمل محتويات الغرفة، فلم أتذكر شيئاً. وهذه هي المرة الثانية التي حاولت فيها التذكر ولم أنجح. وإذا كنت لا أُلام على عدم اهتمامي بطبيعة الضوء أول الأمر لأنه لم يكن جائزاً لي الظن – أنا البريء الخالي الذهن – فإني مُلام بلا ريب على عدم ملاحظتي وجود – أو عدم وجود – منفضة، لأني مدخّن لا استطيع الصبر طويلاً على التوقف عن التدخين، وما دخلتُ مكاناً منذ درجتْ موضة إخفاء السجائر في البيوت وعدم تقديمها للضيوف، إلا تأكدتُ أولاً من وجود المنفضة أو غيابها، بل تحولتْ المنفضة عندي إلى مقياس أحدّد به موقع الناس الاجتماعي، ودرجة ثقافتهم، ونوعها، ومرجعيتها، فأعرف ما إذا كانت ثقافة مختلطة، أم عربية صرفاً، أم أميركية معادية علناً للسيجارة، أم فرنسية، فكيف إذن غفلت عن ملاحظتها هذه المرة، عجيب! لكن لِمَ العجب؟ بل لماذا لوم النفس، ولماذا التلذذ في إدانة الذات؟ فأنا أُدخلتُ إلى هذا المكان، لا كضيف، بل بسرعة وعصبية، فلم يتسنَّ لي ما يتسنّى للضيف من تمهّل وتردد، ونظر واختيار، فلماذا إذن، والحالة كانت كما وصفتُ، ألوم نفسي هذا اللوم غير المبرَّر، فإذا كان من الطبيعي أن ألوم نفسي على خطأ ارتكبَتْه، فليس لي لوم عليها إنْ هي تورطّتْ، عن غير قصد، في أمر يخلو ذهنها من كل ما أدّى إليه.

لكنّ رماد السيجارة كان يطول، وفوضعت يدي تحته لئلا يقع على الأرض، بل ربما وقع، والأرض موكيت، فأنزلت رجلي عن رجلي، ومسحتُ بقدمها الموكيت علّ الرماد، إذا كان وقع، يتوزع بين وَبْرها

ويختفي، فلا يلاحظه أحد ظنّان شكاك. لكن السيجارة ما زالت مشتعلة، والجمرة ما زالت تنهج عند رأسها، والرماد سيقع ثانية أو ربما ثالثة أو رابعة، والعَقب سيكون عليّ سريعاً أن أُطفئه، فالمشكلة ما زالت قائمة وعلي أن أجد المنفضة أو أن أجد حلاً آخر بديلاً عنها، فنهضت عن الكنبة وأشعلت القداحة، أبعدتها عن وجهي، وجلت بنظري على أنحاء الغرفة مستضيئاً بنورها، فلم أجد شيئاً، فأطفأتها وأغمضت عينيّ وفكرت في مسعى آخر، ثم أشعلت القداحة من جديد وتقدمت لأتطلع على الأشياء عن قرب فلم أجد شيئاً، وكان لا بد لي هنا، لسوء حظي، من أن ارتطم برِجل الطاولة المنخفضة الموضوعة في وسط الغرفة، فأحدثتُ ضجة وكدت أقع، لكنني استعدت توازني بسرعة، أما الضجة فكانت للأسف حدثت، فانتظرتُ أن يدخل أحد ليطّلع على ما يجري، فهذه الضجة تشغل البال، فقد تكون محاولة هرب، أو محاولة تمرد ربما لاستحالة الهرب (– ولَمَ لا؟ فمن حقهم أن يظنوا هذا.) أو شيئاً من هذا، مما قد يجيء على البال، كأن تكون محاولة تذكير منّي مثلاً بوجودي بأني ما أزال هنا.

عندما ارتطمت بالطاولة وكدت أقع، أطفأت القداحة تلقائياً عن غير قصد، وبقيت واقفاً في العتمة، في وسط الغرفة، أنتظر، جاهلاً إلى أي جهة كان وجهي، أنحْوَ الباب أم نحو الشباك أم نحو زاوية أم نحو حائط، وعزّ عليّ كثيراً أن يفاجئني أحد وأنا في هذا الوضع التائه المحقّر، فغضبتُ غضبتُ، ومن شدة الغضب كادت أن تدمع عيناي، كدت أبكي كدت انفجر بالبكاء، وتصوّرت وجهي في هذه العتمة الصارمة يتقلص ويتمدد ويتحول في حركات تلقائية متتالية خارجة

عن كل منطق مألوف، فأخافني (وجه الإنسان مخيف فعلاً وهو ينفجر بالبكاء). فأخافني وجهي المنفلت من إنسانيتي، وعزّ عليّ هذا التحول وهذا الانحطاط، وعزّ عليّ أكثر أن يراه أحد وهو على هذا الشكل الحيوانيّ العجيب، فقلت إنه كان من حسن حظي أن القداحة انطفأت، ولكنّ الداخل، للأسف، سيشعل فور دخوله الضوء، فهو عارف بالضرورة بالمكان، فتضاعف غضبي، وبدأتُ عملياً بالبكاء، وسمعت صوت بداية انفجاري به، لكنني بما تبقى فيّ من قوة قلت لن أتخلى عن كرامتي كبشر، ونجحت بإرادة لا أدري من أين جاءتني، في الحد من الضرر، فتمكنت من إيقاف عملية الانهيار العام، الكارثي، وهي بَعدُ في أول بداياتها، وساعدني في ذلك، لا أنكر، مرور الثواني بلا أن يأتي أحد، ثم مرور الوقت، ثم أنه لم يأتِ أحد. وأقول الآن بكل صراحة وفخر انها كانت لحظة قاسية (... فما أجمل الزمن الذي يحوّل هذه التجارب القاسية إلى ذكريات نرويها بفخر ولذة). بعد ذلك بدأتُ أستعيد سيطرتي على كل شيء، على أمري وعلى نفسي وعلى ذاتي، وعلى جسمي، كل جسمي، فخضعتْ لي عيناي، واستعاد وجهي شكله البشري المألوف، بل كدت ابتسم، وربما ابتسمت، لخروجي بالسلامة من هذه الورطة المهلكة، لكنني للأسف، ما زالت السيجارة والعة في يدي، والجمرة على رأسها تنهج نهجاً، وعليّ إذن أن أجد حلاً سريعاً جداً، فأغمضتُ عينيّ هذه المرة أيضاً، وفي هذه العتمة بالذات، وفكرت في مسعى آخر، فأشعلت القداحة من جديد، وأجَلتُ النظر تجوالاً سريعاً في أرض الغرفة علّي أجد فيها مكاناً عارياً من الموكيت أُطفئ فيه سيجارتي،

لكنّ هذه الموكيت كانت تغطي الأرض بالكامل، بلا فسحة وإن صغيرة حتى في أقصى الزوايا، فما الحل إذن؟ علَيّ إيجاد الحلّ فوراً. ثم وفجأة، وكوَحي حلّ لا أدري من أين، قلت ولَمَ لا أوقف عقب هذه السيجارة على المكتب، فتنطفئ على مهل وحدَها، فأضعها بعد ذلك في جيبي، خاصة أن المكتب عليه لوح زجاج، فلا خطر من أن تترك السيجارة أثراً عليه ولا خطر أيضاً من أن تحرق شيئاً، فليس في الغرفة هواء يحملها إلى شيء يمكن أن يحترق، فاقتربتُ على مهل من المكتب، على ضوء القداحة، وأوقفت العقب المشتعل عليه، وجلست على الكنبة ارتاح من تعب هذه التجربة الفريدة، التي ما زلت خارجاً منها، وأتأمل جمرة النار تنوص على رأس العقب.

لكن الجمرة، رغم انها صغرت قليلاً، ظلت تنهج باستمرار.

ثم إنها ظلت تنهج بشكل مريب، باستمرار وعزم، كأنها خرجت عن منطق النار على رؤوس الأعقاب، فبلغت منتصف العقب، أتت على نصفه، وظلت تنهج، تنوص وتقوى، وتنوص وتقوى، بعزيمة مضلّلة، خارجة عن كل شيء اسمه عقل ومنطق، حتى تخطت منتصف العقب بوضوح مذهل. ثم تنبهتُ، وأنا منصرف بكل وجداني إلى تأمل الجمرة، إلى اني أنا أيضاً أنهج، وان وتيرة لهاثي تزداد، فكأني قاطعٌ للتوّ ركضاً منطقةً معرّضةً للقنص، ثم بدأ نهج الجمرة (أخيراً!) يبطؤ، وبدأ حجمها يصغر بوضوح، ثم دخلتْ مرحلة الانطفاء النهائي حيث دامت طويلاً صغيرة تكاد أن لا تُرى، ثم انطفأت تماماً، فأغمضتُ عندها عينيّ لكنها ظلت تلمع فيهما. ثم أدركت أني كنت من الغباء على درجة غير مسموح بها، فأنا وضعت

العقب على المكتب لأن عليه لوح زجاج، ولأن الزجاج لا يحترق، فلماذا إذن أصابني ما أصابني، وانتقلتْ إليَّ عدوى النهج من الجمرة. لكن وتيرة نَفَسي كانت هدأت قبل أن أُجري هذا التحليل الذي، في الواقع، لا علاقة له بالواقع، فأنا لم تنتقل إليَّ عدوى النهج خوفاً من الحريق، بل خوفاً.

خوفاً وحسب.

لأن شيئاً، ربما، خارجاً عن المألوف، كان يجري أمامي ولا أستطيع ردّه إلى مرجعية في دماغي. فلم يكن له شبيه. لم أستطع قياسه على شيء.

على الإنسان بالفعل، أن يكون حذراً حتى من نفسه. وأنا إذ أقول هذا الكلام فلأن ميلاً كان بي واضحاً إلى الخوف والحذر من كل ما في هذا المكتب، والخوف على ما فيه أيضاً، الخوف خاصة من أن أتلف غرضاً فأُلام عليه أو أحاسب حين يجيء وقت اللوم والحساب. لقد بات الأمر عندي obsession وهذا لا يجوز أبداً.

وبعدما ارتحت قليلاً، واختفى من عينيّ وهج الجمرة، وتنفست بعمق، وأدركت رعونتي لظنّي أن انتقال العدوى إليَّ عائد إلى خوفي من احتراق المكتب، رغبت في سيجارة ثانية، فانتبهت إلى أن العلبة وقعت من يدي عندما ارتطمت رجلي بالطاولة وكدت أن أقع، فلم ينشغل بالي، لأني كنت على يقين بأني سأعثر عليها بيُسر، وبمجرد أن أُشعل القداحة، وأُلقي نظرة على الأرض، قرب الطاولة، وصحّ ما توقعت، فما أن قدحتُ حتى رأيتها بين الطاولة والكنبة التي أجلس

عليها. إن لمعنويات الإنسان بالفعل تأثيراً على نجاحه أو فشله، فإذا كان دائم التوقع للسوء فإن السوء يكون من نصيبه لا شك، أما إذا كان متفائلاً فلا بد أن ينعكس هذا التفاؤل عليه، فيلحق به شيء منه على الأقل. فتناولت العلبة (كان عليّ أن أنحني فقط)، وسحبت منها سيجارة أشعلتها، وبدأت أدخّنها بِرَوَاق، متمتّعاً بها وهانئاً. وفي لحظة الهناء هذه، أحسست، لا برغبة في التبويل، بل أحسست اني لو ذهبت إلى الحمام في هذه اللحظة لاستطعت التبويل.

إن المهتمين بأمور الصحة في هذه الأيام، ينصحون كثيراً بشرب الماء، وهذا ما يضطر الإنسان إلى استعمال الحمّام، وأنا رغم عدم أخذي الدائم بالنصائح الصحية عامة، فإني أصدق ما يقال عن أهمية الماء، فأشرب، خاصة في الصباح بعدما انهض من النوم، أشرب كباية على الريق، وأحياناً أكثر، ثم بدل القهوة على الترويقة، أشرب الشاي.

لكن هذا الإحساس لم يشغل بالي أبداً، و لم أتصور نفسي في وضع مماثل لهؤلاء الذين يجدون أنفسهم محبوسين في مكان ما، لسبب ما، فيضطرون إلى حبس بولهم فترة طويلة جداً، أطول بكثير من طاقتهم على الاحتمال (ومنهم من يروي انه إذا أفلتت سيطرته على نفسه، وبال رغم إرادته، وكان في مكان محدد، أُرغم على شرب بوله وغسل وجهه به). أما أنا فقدت نسيت الأمر بالفعل، نسيته بسرعة، و لم أعد أفكر فيه، بل، وعلى عكس ما يمكن أن يتصور كثير من الناس، كنت من حسن المزاج بحيث أنني فكرت بالمناسبة، أن الغرفة لا بد من أن يكون لها حمّام صغير، وهذا عين المنطق، خاصة انها تُستخدم، على ما يبدو، كمكتب، أو على الأقل كمكان عمل، وقلت انني عندما

تعود الكهرباء (– ولا بد أن تعود الكهرباء.) سأتأكد من ذلك، وسيكون الأمر سهلاً عليّ لأنه في حال وجوده سيكون بابه مفضياً بالضرورة إلى الغرفة مباشرة، بحيث لن تكون هناك ضرورة للخروج من بابها، فهذه الغرفة، كما تبدو، مستقلةٌ، وليست تابعة لشقة أو مكتب أو شيء آخر، لذلك فإن حمّامها سيكون مفضياً إليها، إلا إذا كان مشتركاً، أي في الخارج في الممشى، وهذا افتراض استبعده كلياً نظراً لمستوى المكان البادي صراحة للعين.

لم يشغلني إذن أمر التبويل، بل بالعكس، كان التفكير به مفيداً لأنه ذكّرني بالحمّام، ونبّهني إلى البحث عنه، خاصة انه يحل محل المنفضة بالنسبة لموضوع أعقاب السجائر.

سبب آخر لم أذكره بعد، كان له دور إيجابي في عدم انشغال بالي، هو أن حصر البول مسألة قد تشغل بال بعض من تقدم به العمر، وهذه ليست حالتي – وإن كنا ربما جميعاً على الطريق.

... لا! لا! يجب أن أنسى الأمر.

بل نسيته ونسيته تماماً، و لم أعد أفكر فيه، وها أنذا، برهاناً على ذلك، أتابع تدخين سيجارتي الثانية على رواق، متمتعاً بها، متأملاً جمرتها المتوهجة على رأسها، تاركاً هذا التأمل يستغرقني حتى لا تغلبني نفسي، فتنساق إلى ميلها الطبيعي إلى السؤال والقلق والخوف وقلة الصبر، وأسهلُ شيء عليّ الآن، وأنا في هذا الوضع، أن أترك نفسي تتآكلها الأسئلة، ثم الخوف، ثم الهلع، أو ربما الغضب – ولِمَ لا – وبعده التمرد وكل التمرد وكل شروطه متوفرة للمتسرّع علىَ

الأقل، فما لي ولهذه الأمور التي لا تستهوينى أصلاً، وما أنا هنا إلا عابر لن يدوم عبوره، وما وجودي هنا إلا خطأ نتج عن إرادة طيبة، بل صدفة أحدثها القدر، وما هو إلا وقت قصير ينقضي وتعود بعده المياه إلى مجاريها، فأخرج من هنا وأنساب في هذه الشوارع، أنسال فيها كالماء، في اتجاه ما أشتهي، بحرية كاملة، وبراحة ضمير، من غير أن أكون أسأتُ لأحد أو يكون أحد أَسَاء إليّ.

"حلو هَيْك!" أن تتعرض لتجربة، ثم أن تخرج منها أبيضَ ناصعاً كالثلج، فتكتشف بنفسك كم أن الحرية رائعة، والبراءةَ فرح لا يوصف، وتعيش لحظات من الأحاسيس القوية التي تترك أثرَها الجميل على العمر كله.

صحيح ما قاله المثل: رُبَّ ضارةٍ نافعة.

وكنت، كلَّ مرة انتبه فيها إلى اني منصرف إلى هذه الأفكار الجميلة، لاهياً نفسي عن أفكار السوء، أفرح كثيراً، إذ كان في هذا دليل على اني قابض على زمام أمري ونفسي، وعلى اني بريء لا يخالط براءتي شيء فيّ يدفعني إلى القلق أو توقع الأسوأ، لأنه من الشائع المعروف أن من فيه شيء ينعره لا يستطيع أن يخفيه، وأنا لا شيء فيّ ينعرني، فما الذي يمنعني إذن من التمتّع بوقتي، وإن بالقدر القليل الذي تسمح به الظروف، وفي حدود ما تسمح به آداب الضيافة بالتأكيد، اقصد هنا آداب انوجاد الإنسان عفواً وخطأً (– أقصد مصادفة.) في مكان ليس بيته، فلأُدخّن إذن براحة بال، فلن يلومني أحد على التدخين، ولن يعتبره أحد إخلالاً بقاعدة، وتابعتُ هكذا التدخين بمزيد من الصفاء، وبالتالي بمزيد من المتعة، بحيث اني صرت، لشدة استرسالي في الغبطة،

أرى عينيّ مغمضتين نعمةً وهناءً، إلى أن تنبهت فجأة أن رماد السيجارة هذه طال، أو انه لا بد أن يكون طال، فاضطربت قليلاً، لأن المنفضة عادت وطرحت نفسها من جديد وبقوة، (غريب كيف كنت أنتقل من حال إلى حال ومن مزاج إلى مزاج، بلحظة!)، ثم تنبهت لأمر آخر أكثر خطورة بكثير، وهو اني عندما دخنت المرة الثانية لم يكن عن قرار، بل كانت مبادرة عفوية وغير واعية – وهذه بالضبط خطورتها. فلماذا إذن دخنت قبل أن أحل مشكلة المنفضة، ولو حلاً نظرياً – كأنْ أقول مثلاً، أتركُها تنطفئ وحدها، كما تركت السيجارة الأولى، على زجاج المكتب. النفس أمّارة بالسوء. والآن، ومن جديد، أوقعتني نفسي في ورطة أخرى، وعليّ المبادرة سريعاً لإيجاد حلّ فوري، وهذا ما نغّص عليّ لذتي بسيجارتي التي كنت متمتعاً بها إلى حد الغبطة (للأسف، لأنها كانت لحظة جميلة). ثم قلت ولِمَ لا أضعها على المكتب وأتركها تنطفئ عليه بعدما أنتهي من تدخينها. لكن هذا يحل المشكلة العملية فقط، بينما المشكلة الأولى، الرئيسية، تبقى بثقلها الكامل بلا حل: فكيف بادرتُ بلا قرار مسبق بالمبادرة!

يا نفسي!

أعرف أن الإنسان يخطئ، بل أعرف أن الخطأ صفة إنسانية، لكن إياكِ والخطأ حين يحضر المحققون أو السائلون أو المستفسرون أو المستوضحون (فماذا أسمّيهم، بحسن نيّة، وقد مرّ زمن عليّ هنا!) لأن الخطأ عند ذاك سيكون مميتاً، وبكلام أكثر صراحة، سيكون قاتلاً (– أعتذر عن هذه الصراحة!)

نعم!

فإذا كان الخطأ مسموحاً به في مناسبة أو في أخرى، فهذا لا يعني أنه مسموح به بالمطلق، أي في كل زمان وفي كل مكان، فكيف إذن الآن، والوضع دقيق جداً، والحقيقة هيّنة كالماء، تتلوّن بسهولة وبحسن نية على ما يشتهي المحقق، وتتشكل على شكله، وخاصة إذا كانت شيئاً في النفس، وخاصة إذا كانت شيئاً مضى - حدَثاً مثلاً - وأنا هنا لشيء مضى خطير إن نُظِرَ إليه بعين الذين تأذّوا منه، بل إنْ نظر إليه بعين محايدة، فقد رأيت هذه الصورة بعينيَّ، وأنا خارج من الدكان، ممزقة، بينما رأيتها قبل لحظات وأنا أدخل، ما بها شيء، وكانت طريقة تمزيقها تنمّ عن نوايا شديدة السوء، وعن كره مكبوت لها ولما أو لمن تمثّل، فحيث كانت ملتصقة جيداً بالحائط و لم تتمزق مع الفاعل، عند العينين مثلاً، فقد حفّها بسكين أو بشيء حاد، لتبدو العينان هكذا معقورتين مخيفتين، وعند الشارب الحليق حفر خطّاً لإثارة الهزء، والغريب في الأمر أن الحادثة هذه كلها، جرت في ثوان سريعة جداً، بحيث أني تساءلتُ فعلاً، أنا نفسي، عما إذا كان الفاعل تدرب عليها مسبقاً، وإلا فكيف كانت له هذه المهارة وهذه الفاعلية، فحين دخلتُ إلى الدكان لم يكن فيه أحد، فلم يكن عليّ إذن أن أنتظر دوري، فتناولت علبة المارلبورو من صاحبه، ودفعت ثمنها وخرجت، وهذه عملية لا تستغرق أكثر من ثوان، أو فلنقل دقيقة أو دقيقتين على أبعد تقدير. هذا يعني أنها عملية مقصودة ومدبرة، بل مخطط لها بدقة، ومن قِبل محترفين لا يفوتهم تفصيل مهما دقّ، وإلا فكيف تتم عملية من هذا النوع، وبهذه الخطورة، في عز النهار، وفي أكثر الساعات حركة منه، قبيل الظهر، وليس في السماء غيمة تظلل شيئاً على الأرض، كيف

تجري عملية كهذه بلا أن يلحظ أحد شيئاً!

فأقلّ المقاصد إذن من هذه العملية: التحدّي.

فلن يكون إذن في المسألة مساومة. وهذا أمر طبيعي، إذ إن من يريد إزاحتك مثلاً، ليجلس هو مكانك، وبهذه الطريقة، فمن المنطقي جداً ألا تكون رحوماً حنوناً معه، فتُخلي له المكان راضياً. أو أن من يريد إهانتك بهذه الطريقة فليس مطلوباً منك أن تعامله بالحسنى، لأن هذه الإهانة غير مبررة مهما كان سبب الخلاف، ومهما كانت أهميته. لأن المُهين في هذه الحالة إذا تمكّن "ذبح بظفره" كما تقول الناس!

وأنا في الحقيقة، أدركت هذه الأبعاد جميعها فوراً - أقصد فور رأيت الصورة ممزقة وأنا خارج من الدكان - وكان إدراكي لها إدراكاً تلقائياً، كأن شيئاً في الغريزة، أقصد أنني لم أفكر بوعي ووضوح في المسألة، وإنما كان هذا نوعاً من حدس بهيمي، لم يكن ليطفوَ على سطح الوعي لو انني لم أُجرّ إلى هذا المكان حيث أنا الآن. وإنّ هذا بالضبط ما يخيفني! أقصد هذا الحسّ البهيمي اللاواعي، الذي يتحوّل الآن إلى وعي صرف، ويحتل وجداني، ويُظهرني أمام عينيّ أنا بالذات، كأنّ لي ضلعاً في الأمر، لكثرة ما أنا عليم به، وعليم بما خفا منه وما بان وما سيترتب عليه. والخوف كل الخوف هو أن تنعكس هذه "المعرفة" (بالضرورة؟) على سلوكي أو أن أفاجئ نفسي تنضح بأثر منها أمام المحققين، فأعلق في ورطة يضيع معها العمر كله، حتى وإن بقيت لي بعدها بقية من عمر. لهذا فإني، من لحظة دخولي في هذه المعمعة، أُراقب نفسي، وأحاول دائماً ألا آتي حركةً بلا قرار مدروس مسبقاً، وبأدق تفاصيله، حتى لا أقع في الخطأ القاتل. وكنت بالتأكيد أعرف

أن المهمة التي وضعتُها أمامي صعبة جداً، بل مستحيلة، لكنني هنا، في هذه الغرفة، أدركت لأوّل مرة في حياتي، أنه بلا تحقيق المستحيل لا شيء ممكناً، فبتحقيق المستحيل فقط يمكن أن يستمر كل شيء كما كان، أي أن أنجو. لذلك، وبكل بساطة، كان عليّ أن أجد منفضة، أو أن أحل مشكلة رماد السيجارة وعقبها بطريقة ما، فهذه هي المشكلة المطروحة عليّ في هذه اللحظة، لأن رماد السيجارة التي أدخّنها طال، ولأني لا أستطيع الانتظار إلى أن يعود الضوء، فقد نفضت الرماد على الموكيت ومسحت الأرض بقدمي كما فعلت المرة الأولى حتى يختفي كل أثر له بين الوبر، وأما العقب فوضعته أيضاً، كما في المرة السابقة، على المكتب، وتركته ينهج وهو ينوص حتى انطفأ. وعندما انطفأ أغمضت عينيّ وقلت: لن أسمح لنفسي بأن تفاجئني مرة أخرى، ولن أنقاد مرة أخرى عفواً إلى شيء، مهما كان هذا الشيء تافهاً، أو مهما بدا انه كذلك.

(– ليت الضوء يعود!)

عندما فتحت عيني، بعدما أغمضتهما، لم يتغير شيء عليّ سوى أن العتمة عندما تفتح عينيك عليها مزعجة، وتصد، فتخاف أن تصطدم عيناك فيها بشيء فتغلقهما من جديد، ثم تعتاد عليها رويداً رويداً.

كان الضوء فعلاً نعمة، وهو بالطبع دائماً كذلك، مهما كان نوعه، كهرباء أم شمساً. بالفعل أن الإنسان لا يعرف قيمة الشيء إلا بعد أن يفقده. على كل أنا لم يشغلني نوع الضوء إلا بقدر ما كان له علاقة بطبيعة المكان الذي انوجدت فيه فجأة، اقصد أنني من نوع هذا الضوء، قدرت أني أستطيع الاستدلال على طبيعة الغرفة التي أنا فيها،

والاستدلال بالتالي على الخطأ، أو على سوء الفهم، أو على "التهمة" التي جعلتهم يقودونني إلى هنا، فلو كان الضوء ضوء شمس لكان وضعي أقل "خطورة"، فالموقوف أو المحتجز الخطِر، لا يوضع في غرفة يدخل إليها نور الشمس من شباك غير محمي بشِباك من حديد. أمّا من يوضع في مكان مقفل، لا يبلغه نور الشمس، فالتهمة الموجهة إليه تكون تستدعي ذلك، إلا... إلا إذا كانوا يعانون من نقص في الأمكنة، أو لضرورة أرغمتهم على ذلك، وهذا ما ينطبق عليّ بالتأكيد، فأنا موقن بذلك.

أنا، بكل بساطة، موقن من أني وُضعت هنا في هذا المكان بالصدفة، اقصد أن الصدفة اضطرتهم إلى وضعي هنا، وليس نوع التهمة، فلذلك أنا مرتاح ومطمئن البال، وهادئ الأعصاب، وإلا فكيف تُفسَّر رغبتي القوية، في أن تأتي اللحظة التي سيقابلني فيها أحد، لأُعلن له الحقيقة إعلاناً، بلا ذرة من ظلّ، ساطعةً، تَنتزع منه ابتسامةَ حياء، تعبيراً عن "ذنب" يريد أن ينساه. وهذه هي المسألة الآن بالضبط: أن يطلّ عليّ أحد. فالخوف كل الخوف أن يكون الشخص الذي قادني إلى الغرفة لم يبلِّغ عني، أو أن يكون رئيسه غائباً، أو أن يكون شيءٌ من هذه الأمور التافهة التي تعوق انسياب الحياة، وهي لتفاهتها لا تستحق أن يتوقف عندها الخاطر، ولا أحب أن أفكر بأنه قد يكون ربما في إجازة – مسافراً على سبيل المثال! لا! لا لا أريد أن أفكر في هذا الاحتمال، لأنه يهدُّني هدّاً مهما كانت صلابة ثقتي ببراءتي، وخوفي حينذاك لن يكون منهم، فهم يريدون معرفة الحقيقة، والحقيقة حرّيتي، بل سيكون خوفي من نفسي، من

احتمال أن أفقد السيطرة عليها، فتودي بي إلى تهلكة، بخطإ ترتكبه رغماً عني، وهذا إن حدث فلن يكون أوّل مرة يحدث، فقد عوّدتني على ذلك، وكم مرة كَوَتني. إنّ الساعات التي يقول المؤمنون إن الله يتخلى فيها عن الإنسان، والتي يسمونها ساعات التخَلّي، والتي يقعون فيها في الخطأ رغم إرادتهم، تتكرر عندي كثيراً، بحيث انني لم أعد أُفاجأ بها أبداً، مهما كانت نتائجها سيئة عليّ، بل تحصّلت لدي مع الأيام خبرة صرت أخفّف بها من الضرر الذي توقعه عليّ، فصرت مثلاً ماهراً في الاعتذار، وسيّداً من أسياده، وأتقنت فنون الوداعة حتى اشتهرت بها، لأن المُساءَ إليه يَقبَل الاعتذار من الوديع برحابة صدر، ولأن الإساءة من قِبَل الوديع لا تصدر عن رغبة في الأذى، بل ربما قادت الإساءة إلى تعميق الصداقة بين المسيء والمُساء إليه، إذ يتحول الاحتكاك إلى مناسبة لمزيد من المعرفة.

صرت مدمناً على إجلاء الحقيقة، لإظهار براءتي، متوسّلاً إزالة سوء الفهم.

نعم أُسمّي ذلك إدماناً لأنه ليس شيئاً آخر.

ثم أصبح هذا الإدمان على إجلاء الحقيقة جزءاً مني، لا يستقرّ توازني إلا به، فأستدعي لذلك المشاكل التي تستدعيه.

لكنّ الأمور هنا مختلفة تماماً تماماً، فمن سيقبل اعتذاري بمحبة؟ وأنا ومن سنتصارح حتى نزيل سوء الفهم الحاصل بيننا؟ فهنا الحياة ليست كما بين الناس الأصدقاء، أو بين الناس ذوي المعشر الواحد، هنا الخطأ له معنى، والإساءة لها معنى، وكل شيء بحساب C'est normal.

لكنني بالمناسبة، لا أقول هذا الكلام عن صعوباتي العادية مع نفسي، لألقي عليها اللوم لوجودي هنا، فهي ليست مسؤولة عنه، وإذا كان لا بد من تحديد المسؤول، فإني لا أسمّي إلا الصدفة، فهي وحدها التي قادتني إلى هنا، أما إذا كنت بالفعل مصرّاً على لومها، فإن شيئاً فيّ يكون به شيء مصاب بالخلل مثلاً، بلا أدنى شك. لكني لست مصرّاً - لحسن حظي - بل بالعكس أنا مصر على براءتها.

أما إذا كنت لا ألوم نفسي على وجودي هنا، فهذا لا يعني أبداً أنني لا ألومها على هذه الأخطاء التي ارتكبتها الواحد بعد الآخر منذ إغلاق باب الغرفة هذه عليّ، لأنه بات واضحاً أن هذه الأخطاء التي تبدو صغيرةً، ستكلفني غالياً جداً. وإذا كنت نجحت حتى الآن في إبطال مفاعيلها، فإنني لست واثقاً مائة بالمائة من المستقبل، فما الضامن لي انني لن أفاجئ نفسي، في حال كان الرئيس المباشر في إجازة سفر مثلاً (إلى الخارج؟) أو في مهمة ملحّة، أقتحم الباب مثلاً، أو أضربه بكلتا يديّ ضرباً يُقلق شاغرِي المكان، بينما... بينما المطلوب مني الآن، تحديداً، هو ترك السيادة للعقل وحده، والتصرف على أساس ما يُجريه من حسابات، وما يمليه من منطق. والعقل يقول إن بقائي هنا منتظراً بتهذيب واحترام وتفهّم للدواعي التي دعتهم إلى "احتجازي"، هو السبيل الوحيد لخروجي من هنا بسرعة (- بالسرعة الممكنة) وبكرامة، وإلا فإني سأُضطر إلى مجابهة أوضاع لا مخارج مضمونة لها، والعقل يقول: قد أُضطر إلى الانتظار ساعات، وربما النهار كله (والأصح القول: ما تبقى من النهار لأن نصفه تقريباً قد مضى)، وقد أُضطر إلى البقاء هنا طوال الليل، مَعليش، مش كارثة، الكارثة هي فقدان

الصبر، إذ ما قيمة ساعات معدودة، يمضيها الإنسان خارج النمط الذي اعتاد عليه، فمن لا يصادف في حياته حالات من هذا النوع!؟ من لا يتعرض مثلاً لحادث ما، من لا يصدم بسيارته شيئاً فيُضطر إلى البقاء في المستشفى أياماً إن لم يكن أكثر، لسبب تافه، عارض؟ أن عودة الماء، أثناء غيابك، والحنفية مفتوحة – لأنك تنسى إغلاقها والماء مقطوعة – تضطرك إلى البقاء ساعات لرفع الضرر.

مفتاح بيتك تنساه، يجبرك على السهر في الشارع كالمتسكع حتى الصباح التالي.

فمن لم تتعطل عنده في البيت مكَنة غسيل، أو براد، أو شيء أتفه من ذلك بكثير، كحنفية الماء مثلاً، فكم يتطلب هذا من وقت وجهد. نوبة وجع رأس تضيّع على الإنسان نهاره بالكامل. الرشح وحده يشل الإنسان – بلا مبالغة – بضعة أسابيع في السنة الواحدة.

فالمقصود إذن بكل هذا الكلام، أن ما أنا فيه ليس كارثة، ولا شيئاً خارجاً عن مألوف الناس، بل أمر عادي جداً حتى وان كان لا يحدث كل يوم. فلآخذ الأُمور بعقل – الكلام واضح: بعقل – ولأتوقف عن تكبيرها وتعظيمها. فالصبر الصبر إذن ولا شيء غير الصبر. الصبر فضيلة مهما قيل في سيئاته، فما نَدِم أحد على الصبر كما ندم على التسرع، وأنا بطبعي صبور، وأُحبَ فيَّ هذه الصفة، وأحب عندما يصفني بها أصحابي ومعارفي، فما عدا مما بدا حتى أتحول الآن، لماذا؟ في حين أن العكس هو المطلوب، أي أن أكون أنا ذاتي، أن أكون نفسي! والقرار الذي اتخذته أوّل دخولي إلى هنا – أن أكون طبيعياً لا أن أبدو طبيعياً – هو قرار ذكي وصائب، مازال الوضع يتطلب مني

التمسك به حرفياً، شكلاً ومضموناً. والطبيعية هذه يجب أن تحكم سلوكي الآن في غيابهم وبعد مجيئهم، حتى إذا ما لفت انتباههم شيء أكون على استعداد لتوضيحه، كرائحة الدخان في الغرفة مثلاً، فأوضح لهم عندها بلا تردد وبطبيعة تامة، أن التدخين من عاداتي السيئة التي لا أستطيع التوقف عنها للأسف الشديد. ورجائي هنا ألا يكون محدّثي من النوع غير اللائق، فيجيبني مثلاً:

– وعاداتك السيئة الأُخرى! مشيراً بذلك إلى تمزيق الصورة، وموحياً بأني الفاعل!

– ليتك تحدثنا عنها!

عليّ إذن أن أجد جواباً آخر لا أَنْصُبُ فيه لنفسي فخاً، يكون أكثر اختصاراً، وأقل عرضة للاستغلال، مثلاً:

– أنا مدخّن.

لكن هنا أيضاً يستطيع أن يجيبني بكلام من نوع:

– "سامحك! الله التدخين مضرّ بالصحة، فكيف تهدر صحتك وأنت بحاجة إليها والمستقبل قدامك!" مشيراً بذلك إلى ما يفترضه من أني أنا الذي مزّقت الصورة لرغبة عندي في التخلص منهم، لأحل مكانهم.

يجب أن تكون الأجوبة مدروسة بدقة. الاستلشاق مكلف! ثم أن دراسة الأجوبة لا تتناقض مع الطبيعية التي يجب أن أبقى متمتعاً بها مهما كلف الأمر، وان كانت، أي الدراسة، قد تُفقد أجوبتي شيئاً من عفويتها، أو بالأحرى شيئاً من تلقائيتها، لكن هذا ليس صحيحاً

مئة بالمئة، لأن سرعة الخاطر والذكاء لا يتناقضان مع الطبيعية إطلاقاً. فعليّ إذن أن تبدو أجوبتي المدروسة بدقة بنتَ البديهة بطبيعية تامة. أن تبدو...

أن تبدو..!

لكنني أستطيع جعلها طبيعية، بتكرارها عشرات المرات... عشرات المرات للجواب الواحد..! لكن المشكلة تكمن في أني إذا كنت أستطيع أن أحزر مسبقاً عدداً من الأسئلة فمن المستحيل أن أحزرها جميعها. ثم لأفترض أنني عرِفتها جميعها، فإنه يلزمني وقت طويل، ربما أيام وربما أسابيع، حتى أُطبِّعها، أقصد حتى أحوّلها إلى طبيعية.

- والحل؟

الحل يجب أن يكون على أساس أن الأسئلة يجب أن تكون مدروسة. هذا واضح. لأن الخطأ ممنوع.

الحل إذن، ببساطة، أن أبدأ بالبداية، أي بالأمور البسيطة المحسوسة المرئية. فلأبدأ بتعداد الحركات التي قمت بها منذ دخولي وتحضير أجوبة عن كل سؤال يتعلق بها: الجلوس، الوقوف، التقدم نحو "الشباك"، الارتطام بالطاولة، التدخين، الخ. ولأبدأ بالمنفضة لأنها الملحّة الآن، ولأن السيجارة التي في يدي "خلصت".

السيجارة التي في يدي "خلصت"، فأين أضعها؟ لكنني لم أتردد طويلاً فوضعتها على المكتب. ثم حاولت، وأنا أتأمل الجمرة الناهجة بوداعة، أن أجد حلاً بديلاً للمنفضة، فورد في بالي أن أضع الأعقاب المطفأة في كَسرة بنطلوني، ولِمَ لا، فهي تتسع لا شك للعلبة كلها،

وهكذا كان، فتلمّست في هذه العتمة الدائمة الصارمة الأعقاب التي كنت وضعتها على المكتب، وتناولت العقب الأول ووضعته بتأنّ فائق – لئلا يقع فيفلت مني – في الكسرة اليسار، وبينما أنا أفتش عن العقب الثاني رنّ جرس الهاتف!

رنَّ جرس الهاتف فأوقع رنينه ضرراً كبيراً!

كنت جالساً فعلَوت عن الكنبة، كأني طرت. ثم كأنني انتبهت بعد فترة إلى انني حططت، لكن لا أعرف أين.

أمّا الأسوأ فكان الضغط الذي أحدثه هذا الضجيج على دماغي.

ثم رنّ مرة ثانية!

وكانت العتمة كما وصفتُ، لا أخذ معها ولا رد.

ثم رن مرة ثالثة، فبقيت في مكاني، حيث صرت بعد الرنّة الأولى، لا آتي حركة، لكن في أقصى درجات التأهب والاستعداد لتلقي الرنّة التالية. هذه الرنة التالية التي حان موعد انطلاقها ولم تنطلق، ثم ولم تنطلق، ثم جرى على دماغي ضغط يشبه المرات السابقة وأكثر، ثم تأخَّرَتْ: توقف الهاتف عن الرنين إذن! رن ثلاث مرات فقط!

وبعدما تأكدت أن الهاتف توقف عن الرنين، انتبهت إلى أن قلبي ينبض بسرعة مرعبة، وانه يؤلمني كأنّ إبراً تنشكّ فيه، وانتبهت إلى اني أتنفس فلا أشبع من الهواء، واني أرشح عرقاً غزيراً، وان الأماكن التي تؤلمني في أنحاء مختلفة من جسمي لا تُعد، كأن أحداً يهاجمني بآلات الجرّاحين أو أطباء الأسنان.

حين رنّ الهاتف أول رنّة، وأنا أتلمّس أعقاب السجائر، لأفاجأ تلك المفاجأة واضطرب هذا الاضطراب، لا بد أن أكون فقدت السيطرة على نفسي فقداناً كاملاً، فابتعدت بتلقائية كلية عن مصدر الصوت الذي كان حدّي على المكتب، إلى يساري. ولا بد أن أكون ابتعدت بسرعة غير عادية، وفي اتجاه غير محدد بالتأكيد.

أقول لا بد أن يكون حصل لي كل ذلك، لأني لا أدري أين أصبحت وعلى أي حال: لم أكن جالساً بالتأكيد ولا واقفاً. كنت ممدداً بلا شك على ظهري، وكانت رجلاي على شيء ما، إلى فوق، ثم بدأتُ أحس بالألم في رأسي، كل رأسي، وخاصة في جبهتي، إلى الجهة اليمنى، وربما فوق العين، ولَم لا في العين، كأنّ أحداً ضربني عليها بقبضة يده، ثم أحسست بالسائل الفاتر يغرقها، فأغمضتها لكنها لم تستجب لي كما تستجيب عادة، فلم أدرِ لذلك ما إذا كانت أَغْمَضَتْ أم لا، ثم أحسست بالسائل ينحدر حتى الأذن وقد دخل في فتحتها، فرَعَتني بقوة. أن هذا السائل دم بالتأكيد، ومعرفة ذلك ليست بحاجة إلى ذكاء خارق، فأنا إذن جريح، لكنني لا أدري مدى خطورة جرحي، لكنني حي أحس بذلك، وأتمتع بكامل قواي العقلية، وأستطيع الحراك لكنني ممتنع عنه بإرادتي، حتى أتبين ولو قليلاً أهمية الإصابة. (ان المعلومات الأولية عن الإسعاف، التي نتعلمها في المدرسة، وهنا وهناك في الحياة، تأخذ أهميتها القصوى في مثل هذا الظرف الذي أنا فيه الآن، وتتوضح الفائدة من اكتسابها بما لا يقبل الرد.)

كأنّ أحداً يلوي لي رجلاً من رجليّ بقوة! كأنّ رجلي تلتفّ على بعضها، وهي ليست حبلاً أو شيئاً مطواعاً، و لم أعد أدرك ما إذا كانت

هذه رجلي اليمين أم رجلي اليسار أم الرجلين معاً، لأن الوجع يقلل من حدة الوعي. ثم بدا لي كأني ممدد على زجاج مكسور، لأني كنت كلما تحركت، تنغرز فيّ بحدة كِسَرٌ لا تحصى. ثم إن يديّ لم تعودا تستجيبان لي، فكأنهما مربوطتان إلى حائط أو إلى ما يشبه الحائط في القوة والثبات. ثم انتظرت هكذا، غير مختار، صابراً على ألمي، أن تتضح الأمور في ذهني، فأعرف كيف صرت إلى ما صرت إليه، فاستطعت بعد وقت أن أسترجع ما جرى: لا بد اني، وأنا منطلق تلقائياً وبسرعة، "هارباً" من الهاتف الذي رنّ فجأة، اصطدمت بالطاولة في وسط الغرفة، والطاولة هذه عبارة عن قاعدة من حديد عليها لوح زجاج، فتكسّر لوح الزجاج، وتناثرت أجزاؤه، واستقر قسم منها حيث وقعتُ. أمّا الشلل الذي أحس به في يديّ فربما كان عائداً إلى إصابتهما بجروح كثيرة وبالغة. أمّا رجلاي فلا أدري لماذا أحس بهما كأنهما على شيء ما أعلى من بقية جسمي، وأحس بهما في الوقت نفسه ملفوفتين كلّ واحدة منهما على ذاتها كقضيب ليّن.

ثم، وفي لحظة صفاء كأني نسيت أثناءها ألمي، خطر على بالي فجأة أن الهاتف ربما رنّ من أجلي. بل رنّ من أجلي! لأنهم أرادوا إبلاغي شيئاً ما.

أرادوا ربما إبلاغي السماح لي بالخروج، فهذا أكثر الاحتمالات إمكاناً، بل هو المنطق بالذات. أو ربما، في أسوأ الحالات، أرادوا إخباري بأنهم قادمون لعندي، أو إشعاري بوجوب حضوري لعندهم، فمنطق الأشياء يفرض عليّ اليقين بأنهم لا يريدون نقعي هنا إلى الأبد، فإني لا أرى لهم فائدة من ذلك.

ليتني بقيت ساهياً عن هذا الأمر!

ليتني لم يخطر على بالي أن المخابرة كانت لي، وان الفرصة التي طالما انتظرتها فاتتني.

يا الله!

من جديد!

عليّ الآن الانتظار من جديد، من البداية بل ربما أكثر بكثير، فلا بد أن يكون المتّصِل بي ظنّ اني لم أعد هنا، وانه بالتالي أصبح في حلّ من أمري، وان مسألتي بالنسبة إليه باتت منتهية، فمن سيتذكر بعد الآن اني ما زلت هنا، بل من سيتذكر اني ما زلت وحسب، لأن هذه الغرفة حيث أنا، منسية على ما يبدو، لا يدخل إليها أحد. فما هذه الغرفة اللعينة إذن، ما طبيعتها، ما وجهة استعمالها، أين مكانها من الضوء، من ضوء الشمس، يجب أن أعرف طبيعة المكان الذي وُضِعتُ فيه لأفهم طبيعة نظرتهم إليّ، فأنا لست في حفرة مسقوفة، بل في مكان لائق جداً، أستطيع النوم فيه متمدداً، إن شئت، فما طبيعة هذا المكان، هذا سؤال أساسي، بل أساس كل شيء، لأن الإجابة عنه توضّح طبيعة وجودي هنا. يجب أن أتحرك في هذا الاتجاه. لكن كيف؟

كيف أتحرّك الآن في هذا الاتجاه وأنا في هذا الوضع الغريب المفاجئ، فأولى مهمّاتي يجب أن تكون وقف النزف فوراً، فإني أنزف من كل الجهات: جبهتي وظهري وربما يديّ، وربما رجليّ. ثم بدا لي كأني أحلم، كأني أرى جمرة سيجارة تتحرك في هذه العتمة، بما يناسب حركة اليد التي تمسك بها والتي لا يمكن رؤيتها، كأنني بالفعل

أحلم، وليس غريباً أن يحلم الإنسان في مثل هذه الحالات الضاغطة، التي تولّد حاجة ملحّة إلى الحلم، كهروب من الواقع المرير، وكانتصار رمزيّ عليه. وكانت هذه الجمرة تلسعني لسعاً حين تَمَسّني من وقت لآخر، وكأن اليد القابضة عليها تجهل تماماً وجودي في هذا المكان، أو تجهل مكان وجودي فيه، فتتحرك في كل اتجاه كما تشاء، بلا رقيب أو حسيب، وبلا انتباه، وتحطّ لسوء الحظ على الأماكن المؤلمة من جسمي، وخاصة على العين حيث تكرر ذلك مرات كأنما كانت العين هي المقصودة، فما كانت تغيب إلا لتعود إليها بعد فترة، وكانت تعود كل مرة من جهة، فمرة عن يمين، ومرة عن يسار، ومرة من فوق، لكن دائماً دائماً عليها.

ولِمَ العين القصد الدائم لا الأصابع مثلاً: السبابة والإبهام من اليد اليمنى، حيث كانت تلامسهما الجمرة أحياناً في تنقلها العشوائي!؟

كأنني أحلم.

كأنني أحلم أن جمرة سيجارة تقترب من منبت الشاربين وتتنقّل عليه، أو كأن شيئاً حادّاً يشرّطني هناك، فأتذكر الصورة التي شُوّهت تشويهاً حيث لم يستطع المعتدي تمزيقها، وأتبسّم للشبه.

كأنني، وأنا ممدد على كِسر الزجاج أنزف من كل الجهات.

كأنني أحلم بأنّ أحداً هنا إلى جنبي، يؤانسني وجوده – مهما آلمني. فأنا بحاجة لا تُرد إلى إنس في هذه العتمة الموحشة، وفي هذا الوضع الغريب الذي لا أعرف كيف أخرج منه.

كان عليّ أن أردّ على الهاتف!

كان عليّ أن أردّ على الهاتف بدل أن أترك نفسي توصلني إلى ما وصلت إليه: في مكان ما من الغرفة مدمّى، غير قادر على المبادرة بشيء.

هذه ثمار التلقائية.

هذه ثمار الخطوات العشوائية غير المدروسة.

الآن تغير كل شيء نتيجة هذه الخطوة الطائشة. لم يعد شيء كما كان. فعليّ إذن الإمساك بزمام الأمور من جديد، وفوراً، عليّ المبادرة بخطوات صغيرة محددة، مدروسة بدقة لامتناهية، لكن بزمن متناه إن لم يكن سريعاً (عليّ ألا أنسى أن السرعة غير التسرع).

لكن هل هذا ممكن الآن بعد الذي جرى؟

سبق وقلتُ إن المستحيل هو الممكن الوحيد الآن، فلا خيار آخر عندي، أن المستحيل هو السبيل الوحيد الموجود. يجب أن أدرس كل خطوة أنوي القيام بها بدقة لامتناهية، ويجب أن يكون التنفيذ بمستوى التخطيط من حيث الدقة، بلا إبطاء؛ بل بسرعة، والسرعة لا تعني التسرع أبداً، هيّا فبماذا أبدأ؟ فالوضع الآن تغير جذرياً عمّا كان من قبل، فعليّ البدء إذن بناءً على هذه الملاحظة البسيطة والأساسية. لكن هذا الحلم الذي بدأ يتحوّل إلى كابوس، مازال يستبد بي: مازالت هذه السيجارة تتحرك وحدها، كأن بأصابع خفيّة، وما زالت تمسّني من وقت لآخر، أثناء حركتها، في أنحاء حسّاسة من جسمي وخاصة في العين، ثم ازدادت وتيرة مسها لي، وّمازلت ممدداً على كسر الزجاج أنزف، ورجلي إلى فوق، ويداي على حالهما. كأنني أخضع لعملية

تعذيب بأسلوب بدائي. لكن هذا الألم الذي أشعر به الآن هو الذي يجب أن يدعوني إلى المبادرة بدل الاستسلام، فعليّ إذن أن أبدأ فوراً، وبسرعة (أكرر: السرعة ليست التسرع)، لكن بماذا؟

فبماذا إذن أبدأ؟

عطشتُ!

وأظنّ أني عطشت لسبب من اثنين: إما لأني أنزف، وإما لأني حلمت بأني أشرب، بل ربما للسببين معاً، ولِمَ لا؟

وكان الماء الذي شربته في الحلم، لا يشبه في طعمه أي ماء شربته من قبل، فربما لذلك عطشت إلى ماء بارد نقي.

كأن هذا الماء الذي أشربه كان ممزوجاً بأنواع الأدوية الغريبة الطعم، كما في المستشفى.

كأن هذا الماء الغريبَ الطعم أليفُ الرائحة وأليف الملمس. وكانت تغلب عليه الملوحة، وحرارته تميل إلى الفتور، فما أغرب الأحلام!

وكان يتدفق إلى فمي من مستوى وسط. وأحسه أحياناً يُغرق منخريّ، ويبلغ عينيّ، ويسيل على وجهي في كل الاتجاهات. فربما كان هو الدواء المناسب لجروحي وقد رشّتني به عناية ما غير منظورة. (في الممارسات الشعبية يُتداوى بالبول ضد الجروح وعقص الحشرات.)

بل يجب أن أخرج فوراً من هذا الوضع غير اللائق، يجب أن أبدأ، وأن أبدأ بشيء ما بدل إضاعة الوقت بالبحث عن الشيء الذي عليّ البدء به. فلأبدأ بأول شيء يأتي على البال... ما أسخفني! ما أرقّ

دماغي! فمازلت أتساءل منذ دهر بماذا أبدأ، بينما الذي عليَّ البدء به واضح وضوح الغضب الذي يجتاحني الآن بسبب انعدام البصيرة عندي: عليَّ أن أنهض أولاً وقبل كل شيء! فهل يُعقل أن أبادر إلى شيء وأنا ممدد هكذا كالبغل لا آتي حراكاً!؟

لو تبتلعني الأرض!

لو تنشق الأرض وتبتلعني إلى أجوافها فأختفي إلى الأبد! فجلستُ.

جلست بكل بساطة. وبشقفة قماش لا أدري كيف بلغتْ يدي، أو كيف بلغَتها يدي، مسحت عينيّ أولاً، أو بالأحرى حاولت مسحهما فلم أستطع لأنهما آلمتاني كثيراً، ثم مسحت... ثم مسحت ما استطعت، وماذا أستطيع ودمي عليّ في كل مكان. وكنت أتصرف بيد واحدة، لأن الأخرى مازالت مشدودة إلى شيء لا يتزعزع، ولا يلين. ورجلي ما زالت إلى فوق، غريب! فكيف يكون ذلك وأنا جالس ورجلي فوق! وهممت بالنهوض فعجزت، وهممت مرة أخرى بلا نفع أيضاً، فأدركت حينئذ اني عليّ تدبر رجلي وإلا فلن أفلح في النهوض، فعمدت عندها إلى حيلة، فمددت يدي الحرة إلى الرجل وتلمّستها بتأنّ حتى بلغت القدم التي كانت بلا حذاء. وقع حذائي من رجلي في لحظة الفوضى، فكيف سأنهض وأمشي على الأرض وهي كلها زجاج مكسور. هذه مشكلة مستجدة لا ألوم نفسي على عدم التحسب لها. والمفاجأة الكبرى أن رجلي الثانية كانت أيضاً بلا حذاء. كل هذا جرى في لحظة الفوضى اللعينة، التي كان يمكن أن تكون بالنسبة إليّ لحظة الخلاص. يا للمفارقة، الشيء ذاته إمّا هذا وإمّا هذا! فلماذا لم أردّ؟ فما هذا الذي يحتّم علينا اقتراف

أخطاء مميتة إلى هذا الحد، فما هي هذه المنطقة في النفس التي تتحدّدُ فيها وجهةُ التصرف؟ وكيف؟ ولماذا هذا السلوك وليس ذاك؟

يجب ألا نترك أنفسنا للغيب والغموض. ولكن ما الذي حدد في تلك المنطقة من النفس اتخاذ هذا القرار؟

إنسَ التفلسف الآن يا رجل، ليس وقته الآن، الوقت الآن للدرس والتنفيذ، فخُذِ القرار المناسب للّحظة، ونفّذه بدقة!

ثم فوجئت بأني لابس حذائي، وأني لست كما توهمت عاري القدمين منه، لكنني أحسست أني بلا كلسات، أو كأنني كذلك، لكن هذا لم يعد الا تفصيلاً بسيطاً بلا أهمية. ثم تقدمت في هذه العتمة العنيدة نحو الكنبة، وجلست عليها. خيّ!

تنهّدت في سرّي: خيّ! لا بسبب شعوري بالراحة، فأنا ما زلت أتألم، بل لأني جلست وحسب، فهذا وضع لائق على الأقل، به أستطيع مجابهة الأشياء بطريقة أخرى، أكثر راحة واتزاناً، وهذا وضع يفرض على محاوريك، وإن بشكل لاواع، التعامل معك كإنسان وكبشر. أما الوجع فكان مؤلماً ويزداد. وكُنت أتوقع بعدما جلست على الكنبة أن يخف، لكنه خيّب ظنّي. كان الوجع حيّاً ويزداد. وبالوجع الحيّ أقصد الوجع الذي في الصميم، أي الذي في عصب القلب أو في قلب العصب، والذي يتمحور عليه الوجدان. والوجع الحي يلمع، فتراه بعينك خارجاً عنك، كنصلٍ أو كأفعى من برق، واضحاً وأكيداً، ثم خاطفاً، ثم دائماً، وأنت فيٍّ العتمة بالذات. ومع ذلك يجب أن أنسى، يجب أن أنتصر لأنجو، يجب أن أنتصر على ألمي،

انها الطريقة الوحيدة الممكنة: فعل المستحيل! هذا بالضبط المطلوب تحقيقه الآن، المطلوب مني تحقيقه الآن. وكل ما هو أقل من ذلك كلام فارغ ومضيَعة للوقت. يجب أن أبادر فوراً وإلا تأخرتُ، وقد أضعت على كلّ حال حتى الآن ما يكفي من الوقت: enough! لا أدري لماذا خطرت على بالي هذه الكلمة بالإنكليزية، وأنا لا أعرف من هذه اللغة إلا القليل، والقليل الذي أعرفه لا أعرف كيف أستعمله!

- بادِرْ! لا تُضِعْ وقتك من جديد في الأمور التافهة! وما عليك الآن انجازه كثير وواضح: تنظيف الأرض من الزجاج الذي تناثر عليها في كل مكان، ولملمة أعقاب السجائر عن المكتب، وترتيب الفوضى التي خلّفتها "العاصفة" في الغرفة. فلأبدأْ بالهيّن، بلملمة أعقاب السجائر.

فبدأت، فمددت يدي أتلمسها، فوقعتُ بسرعة على العقب الثاني الذي كنت أبحث عنه عندما فاجأني رنين الهاتف، وأحدثت مفاجأته هذا الضرر الكبير، فتناولته ووضعته في كسرة البنطلون، كما وضعت العقب الأوّل الذي، لسوء الحظ، لم يعد موجوداً! لأنه لا بد أن يكون وقع على الأرض أثناء "العاصفة"، ولا يمكن في هذه العتمة تحديد موقعه، فيجب اعتباره إذن تجري عليه أحكام كِسَر الزجاج، ويجب تأجيل موضوعه إلى وقت معالجة موضوعها.

ثم وجدت العقب الثالث، بسرعة أيضاً وبسهولة، ووضعته في الكَسرة. وشعرت بعد ذلك بشيء من الرضى، فجميل أن تعمل وان تقطف ثمار عملك، وأردت عندذاك، كما في الدعاية، أن أتوّج متعتي بسيجارة مارلبورو، ففتشت عن العلبة في جيب الجاكيت... يبدو أن

مفاجأة الرنين لم تحدث أضراراً كبيرة فقط، بل أحدثت كارثة فعلية، وهذا ما تبينته مع الوقت.

فأين وقعت علبة الدخان؟ وعلبة الدخان تستدعي القداحة، فأين القداحة؟

يبدو أن الأشياء بدأت تخرج نهائياً عن إرادتي، وعن قدرتي على التحكم بها، فهل أستسلم؟

فهل أبقى جالساً على هذه الكنبة، منتظراً، واضعاً رجلاً على رجل، تاركاً الأشياء تجيء كما تجيء، على طريقة اليائس المفرط في اليأس، أو على طريقة اللامبالي المفرط في اللامبالاة؟ وعادت الكهرباء!

عادت الكهرباء!

إنها الكهرباء لا ريب فيها، ذلك أن الشمس لا تظهر ولا تغيب إلاّ على ما جرى من أول الدهر، أما الكهرباء فتروح وتجيء بلا ضابط. لكن الفرق بين نور الكهرباء هذه ونور الشمس يسيرٌ يسير، بحيث يستحيل التمييز بينهما. غريب! لم يلتبس عليّ نورٌ في حياتي كلها كما يلتبس عليَّ اليوم هذا النور، فكيف؟ أيمكن أن يختلط على الإنسان الفرق بين نور الشمس ونور الكهرباء، وفي بلاد كهذه حيث الشمس فخرٌ وكنز ووضوح، وحيث كل مواطن يعرف انها هبة من السماء منَّت علينا بها.

لكنني، وبعد مضي الصدمة التي أحدثتها عودة الكهرباء، تنبهت إلى أن نظري به شيء، به شحّ ربما، بل أكيد، فإني لا أرى بوضوح، وبالعينين الإثنتين فإني لا أرى بوضوح، ولا أستطيع أن أفتح جفنيّ

كاملاً، فشيء من فوق يضغط عليهما، يمنعهما عن الانفتاح. لكنه ضوء الكهرباء وإنْ كنت أرى بشحّ، والجوّ أيضاً عابق بدخان السجائر التي دخنتها، فالقليل من الضوء الذي أستطيع تميزه عابق ببياض أسود سميك، لكن اللافت أن هذه العبقة لا تحدثها السجائر القليلة التي دخنتها، بل يلزمها لتحدث ناس عديدون مدخّنون، ثلاثة على الأقل أو أربعة، فمن كان يدخن معي؟ أم أن الغرفة كان جوها عابقاً قبل دخولي إليها و لم أتنبه للأمر بسبب السرعة التي تمّت بها الأمور؟ أمّا السبب فمهما كان، فعليّ أن أفتح شيئاً، باباً أو شباكاً أو ثقباً، وإلا اختنقتُ، وأنا déjà أكاد أختنق، فعزمت على النهوض وبلوغ الباب وفتحه، وهو المنفذ الوحيد الذي يمكن فتحه بالتأكيد، وأقول بالتأكيد لأنني رأيته مفتوحاً، ورأيته يُغلَق ورائي، وقد دخلت منه عندما دخلت، فنهضت بما كان لدي من عزم، وتقدمت منه بثقة وطبيعية، ومددت يدي إلى المسكة وقبضت عليها لأفتح...

"العقل زينة"!

"العقل زينة"! يقول المسنّون، عندما يقوم أحد بعمل أرعن أو متسرع أو طفولي.

وقبضت على المسكة إذن لأفتح الباب...

- هيّا! من جديد! هيّا يا رجل، لا تعرّض نفسك لورطة أخرى أنت في غنى عنها، أَعِدْ تذكّر يومك من لحظة استيقظت، ماذا فعلت، أين ذهبت، بمَن اتصلت، من التقيت، ماذا سمعت، ماذا رأيت. وللروائح أيضاً فائدة فمن يدري. هيّا!

– فكيف بدأ إذن نهاري؟

– بدأ نهاري كالعادة، كما يبدأ كلَّ صباح!

– وكيف يبدأ نهار كالعادة، كما يبدأ كلّ صباح! فماذا يعني هذا الكلام، وماذا يفيد سائلاً خالي الذهن تماماً، وماذا يفيد أحداً يسال عني، عن طريقة عيشي، وعن كيفية شغليَ وقتي في النهار وفي الليل؟

لكنني إذا أردت استعادة يومي بالكامل فلن أنتهي قبل دهر من الآن، فعليّ إذن البدء بالأهم، ثم بالمهم إذا توفر الوقت، ثم ما هو دون ذلك أهمية.

أما مقياس الأهمية فواضح، وهو ما يهمّهم معرفته، وما يهمهم معرفته واضح أيضاً، وهو كل ما يثير الشك لديهم فيّ.

فماذا جرى في يومي هذا، منذ الصباح وحتى اللحظة، مما يمكن أن يثير السؤال لديهم؟

– لا شيء!

هيّا أيها الرشيد فقد دلّعتَ ذاكرتك طويلاً، فأَتْعِبْهَا الآن قليلاً، فلن يقتلها التعب. فبِمَن التقيت، بِمَن اتصلت، بِمَن اجتمعت، ومن منهم عليه شبهة، أو ممكن أن يكون؟

والاسم الذي نسيتُه!

اسم الشخص الذي التقيته قبل دخولي إلى الدكان، وحاولت مخاطبته باسمه لكنني لم أتمكن لأنني بكل بساطة نسيت اسمه؟

نعم نسيت اسمه!

وحاولت لحظتها عبثاً تذكره، وأقلقني ذلك وذلك دائماً يقلقني لأني أردّه إلى تقدم العمر. وبدا عليّ القلق واضحاً بحيث أنه سألني ما بي، وماذا إذا كنت مشغول البال، فقلت له: لا، كل شيء ماشي.

أما الآن فقد جدّ الجد فعليّ تذكّره، فأنا مجبر على ذلك، ففي القضية موت وفيها حياة، وأغمضت عينيّ، وكانتا بالكاد مفتوحتين، ورحت أتذكر. تذكرت وجهه جيداً، كنت أراه بوضوح تام، وتذكرت مشيته، ولباسه، لكن اسمه لا، غاب عني، غاب بالخالص. تذكرت شعر يديه، ابتسامة وجهه، شفتيه الممتدتين. فكيف أُفهمهم ذلك؟ وكيف يحقّ لي في الوقت نفسه أن أُلومَهُم؟

لكني نسيت اسمه!

إنها سُنّة الحياة، ينسى الإنسان مع العمر. وأنا فوق ذلك أنسى، فهذه صفة قديمة فيّ، أنسى، ولست أدري ما إذا كان علي لومٌ في ذلك، في أنني لم أدرّب ذاكرتي على التذكر، فكثيراً ما أسمع أن تشغيل الذاكرة يبقيها نشطة على الدوام ويقوّيها.

لكن الآن يجب أن أتذكر، وقد حدث لي في السابق أحياناً أَنْ نجحت وتذكرت، فهذا ليس إذن مستحيلاً، بل ممكن. وإذا كان المستحيل هدفاً عليّ تحقيقه الآن، فالممكن يجب أن يكون شربة ماء - قياساً على أهمية المسألة.

أنا دائماً ألتقي هذا الشخص من وقت إلى آخر، وأسلّم عليه بحرارة، وهو يكنّ لي الودّ والمحبة. عرفته من زمان، وما من مرة ذُكر فيها اسمه أمامي إلا تذكرته فوراً، و لم يخطر على بالي مرة أني سأنسى

اسمه، لكن من زمان لم أستعمل هذا الاسم، ولا أذكر متى حدث لي أن تلفظت به آخر مرّة ومع من. غريب أنواع الصداقات التي تنشبك أحياناً بينك وبين ناس لا تعرف عنهم شيئاً، إلا انك تفرح لرؤيتهم، وتبتسم بعفوية، وتسلم عليهم بالعبارات التقليدية الآلية البحتة، ثم تتركهم ويتركونك، لتعود وتلتقي بهم في مكان ما بعد فترة قد تطول وقد تقصر، وتسلم عليهم بالطريقة نفسها.

ورحت أحاول تذكر اسمه بإلحاح، لئلا يحرجني النسيان (ليت الأمر يقتصر على الإحراج!) ومرّت في خاطري أسماء اعتقدتُ انها له و لم تكن له، ومرت أسماء اعتقدت انها تناسبه وانها قد تكون لذلك اسمه، ومرت أسماء تناسب ابتسامته أو حياءه، أو تناسب طريقته بالكلام أو وداعته.

وداعته؟ فكيف يمكن أن يكون هو الوديع من يسبب لي، وإنْ عن غير قصد، هذه المشكلة الخطيرة.

كان وجهه يتراءى لي، وأنا أفكر فيه بهذه الطريقة، بلون يوحي بالظن... معقول؟ معقول أن يكون له دور في العملية؟ التقيته قبل باب الدكان مباشرة، أمام الصورة، وقد أدار وجهه نحوها لحظة على ما اذكر، لكن أي دور؟ دور في تمزيقها أم دور في التآمر عليّ؟ لا! لا جازمة، فبأي حق أُحَمِّله عواقب ضعف ذاكرتي.

لكنّ اسمه سيورّطني؟

ربما كانوا يراقبون المكان عندما وقفت أسلم عليه. بل ربما كانوا يصوّرون. وما اسميه أنا سلاماً، يسمّونه هم تسليم معلومات، أو

تحديد هدف. وهذا من حقهم أن يفكروا كما يشاؤون، وان يضعوا الافتراض الذي يشاؤون، فهذا عملهم ولا أحد يمكن أن يلومهم عليه. وحلُّ هذه المشكلة من أساسها عندي وحدي، وهو حق لهم عليّ: فما اسمه؟ فمتى عرفوا اسمه استطاعوا تقصي المعلومات عنه، إن شاؤوا، والتأكد بالتالي من صحة قولي. وإلا فمن يصدق أن أحداً يسلم على أحد بهذه الحرارة وهو لا يعرف اسمه.

فما اسمه ما اسمه ما اسمه يا الله! يا إله التذكر! أليس من إله للتذكر يمكن الاستنجاد به؟ ولا أتذكّر إلا ابتسامته، إلا وجهه مبتسماً ثم يختفي، أو يمّحي ليتحول إلى وجوه أخرى، وأبقى هكذا مركزاً عليه حتى أحسّ بانتفاخ متفجّر داخل رأسي، فأحاول أن أتناسى قليلاً لأرتاح، ثم أعود من جديد باندفاع أكبر، لكن عبثاً. ثم أحاول أن أغفو، ولو قليلاً جداً، لأستفيق بعدها متفتح الذهن نضراً، لأن الطبيعة تتابع مهامها بهدوء وفاعلية أثناء النوم، ولكني كنت ما أزال أتألم، بسبب ما أدت إليه هذه العاصفة من أضرار كادت أن تكون قاضية بالخالص. ثم أعود وأركّز من جديد على اسمه، أحاول إتيانه من جهة أخرى، مستعملاً أسلوباً آخر، بانياً – مثلاً – على القليل الذي أتذكره منه، منطلقاً إلى الباقي في قفزة واحدة، أو منطلقاً من شكل وجهه من ابتسامته من اتساع شفتيه المبتسمتين من عينيه الغائرتين في وجهه المبتسم المبتسم المبتسم... ظبطت.. ظبطت.. يا الله... لا! لم تظبط. لم يظهر الاسم، أو أن الاسم الذي ظهر ليس الصحيح. إلى أن ينقطع قلبي، وتنغرز فيه أشياء صلبة ومروّسة، وتبقى وتزداد.

وأحياناً كنت أنسى ما تذكرت، فأحاول تذكر ما نسيت، خاصة

إذا كان شعوري أن ما نسيته قريب من الهدف، من الاسم. تذكر التذكر. هكذا في عملية مضنية تقطع النفَس ولا تنتهي.

خلصْ، صطّمت معي، فلا سبيل، لا طريقة، خلصْ، والأفضل أن أوفّر هذه الجهود المضنية التي أبذلها في التذكر، من أجل أن أكون قادراً على تحمّل ما سيأتي. ولا أحد يعرف ما سيأتي وما قوّته أو طبيعته أو فاعليته، وكم سيدوم وما سينتج عنه.

- سأعود إليه.

بل ربما سيأتي من تلقاء ذاته، على بغتة، كما يحدث أحياناً كثيرة في مثل هذه الحالات. لذلك عليّ الانتقال الآن إلى عمل آخر.

بل إلى العمل الآخر!

هذا العمل الذي لا سبيل إلى التهرب منه ولا نفع من التحايل لتأجيله. فعبثاً أحاول الاستمرار في الكذب على نفسي لأنه بلا جدوى، فالكذب على النفس لا يقنع الآخرين.

وأعتقد الآن أن سبب استقراري في تذكّر ذلك الاسم ربما كان تحاشي الانتقال إلى هذا العمل الآخر:

دفتر التلفونات لو أستطيع بلعه!

فما من أحد في هذه المعمورة، يحمل دفتر تلفونات، إلا ويعجب حين يتأمل فيه أحياناً، من أسماء كثيرة سجّلها عليه بخط يده ونسي تماماً من هم أصحابها. وأنا أعرف من زمان، أن على دفتري أسماء لا أذكر عن أصحابها شيئاً أبداً، ولا أذكر متى سجلتها وبأي مناسبة. بل

هناك أسماء لا أستطيع قراءتها! قد سجلتها ربما على عجل، أو في سيارة أو وقوفاً، وهناك أسماء غير واضحة، ممحية أو مكتوبة بقلم رصاص أو بقلم متقطع الخطّ. لكن الكارثة تقع حين أُسأل عن اسم كامل مكتوب بخط واضح ومقروء، فهل سيصدقني أحد إن أجبته بأني لا أعرف!؟ والسائل في مثل هذه الحالات ملحاح، عنيد، لا يصرفه شيء أو حيلة أو أحد عن قصده، وهو في الواقع يُختار لهذه الصفات التي يطوّرها فيما بعد، ليكون عند حسن ظن رؤسائه، فيستطيع التقدم في حياته المهنية.

كنت دائماً أقول، يجب أن أشتري دفتراً جديداً، لأنقل إليه الأرقام التي استعملها فقط. الآن il est trop tard لم يعد ينفع. فلماذا إذن لا آكله، وهو صغير جداً وخفيف، والصعوبة الكبيرة فيه – غلافه – يمكن التغلب عليها مبدئياً، وإنْ بكثير من الماء؟

بالماء!؟ أين الماء؟

لو استطعت مضغه وبلعه كنت ارتحت بالتأكيد. كنت ارتحت من مشكلة كبرى كبرى، ستؤدي بي إلى ورطة لن يكون لي طاقة على تحملها. فلأبدأ. ياالله. لكنني إذا بدأت فيجب أن أُكمل، وإلا أكون هربت من تحت الدلفة لأجد نفسي تحت المزراب. يجب أن آتي على آخر نسرة فيه، فلا يبقى له أثر، وإلا أكون قدّمت لهم برهاناً ساطعاً على أني مذنب. وبدأت هكذا بالورقة الأولى مضغتها على مهل وبلعتها. أقصد دفعتها إلى البلعوم. لم يكن الأمر سهلاً، لكن، وكما ذكرت دائماً، انني هنا يجب أن أستطيع تحقيق المستحيل، فكيف بالذي دونه.

الورقة الثانية كانت صعبة جداً، فلم أستطع بلعها، كان يلزمني وقت أطول مما أُعطيت، وكان يلزمني ماء، كثير من الماء، ومزيد من الماء، وإلا فهذا مستحيل! (أقصد فوق طاقتي).

مستحيل! (أقصد فوق طاقتي).

ووجدت بعد فترة أن فمي مملوء بالدفتر كله. كانت لحظة غضب. وكان عليّ أن أمضغ وان أمضغ وان أمضغ، بطيب خاطر حتى لا يكون قسراً، ولم يبقَ في فمي ريق ولا أثر لريق، نشف تماماً، صار حطبة، فكيف أستطيع البلع في هذه الحالة، خاصة أن الورقة الأولى كلها ما تزال عالقة في بلعومي، ثم فوقها الورقة الثانية، فتراكمت الأشياء هكذا لتعطّل الاقتراب من الهدف. الحياة كلها أعطال بأعطال.

أعرف بشراً، واحداً على الأقل، لا يسجل في دفتر تلفوناته أسماء قد تسبب له المشاكل، أسماء زملاء له في العمل لا علاقة لهم بالدنيا إلا السعي مثله فوق قشرة الأرض للارتزاق، لكن أسماءهم هي ذاتها أسماء بشر آخرين تتهامس الناس بها. كنت حاضراً حين حرّف اسماً من هذا النوع وهو يدوّنه حتى صار كاسم آخر، فسألته عن السبب، فأجابني: الم ترَ هذا الاسم، فمن يستطيع المجاهرة به! خاصة بالكتابة، فمن يدري. من يدري بين أيدي من يقع هذا المكتوب. وعليك بعدها أن تتحمل النتائج، لأن السائل يريد أن يصل إلى الحقيقة، وسيكون عليك إيصاله إليها، أو سيكون عليه الوصول إليها بواسطتك. "العقل زينة" ألم تسمع بهذه الحكمة؟ سألني. فلماذا تعريض النفس للمشاكل بلا فائدة، bêtement وغمزني بعينه بعدما قال هذا الكلام. أحسده! لكن الآن. الآن أحسده، أما وقتها فسخرت منه في نفسي، بل عجبت

من وجود أصناف بشرية من هذا النوع. معقول؟ تساءلت متعجباً في سرّي. وقلت في سرّي أيضاً انه رجل غير طبيعي. أحسده.

لكن الآن أحسده.

وفكرت فيه طويلاً طويلاً وأنا أجهد في بلع أوراق دفتر التلفونات ودفّتَيْ غلافه، وغرت منه، تصوّرته عائداً في هذا الوقت من عمله، وهو في مثل هذا الوقت يعود: فتح الباب فتراكض نحوه أولاده الثلاثة (هو تزوّج قبلي)، وأحاطوه من كل جهة، فاحتار كيف يأخذهم وبمن يبدأ، ثم خاف على الصغيرة أن تقع في هذه العجقة فحملها أولاً، ثم قرفص ليطال الصبيين اللذين كانا يشدانه ببنطلونه. بابا! بابا! جوقة أصوات تناديه بابا! بابا! ثم يقترب بهم جميعاً نحو الداخل حيث كانت زوجته في ثياب البيت واقفة تنظر إليهم برأس مائل من حنان، وتنتظر بفرح أن يفرغ من أولاده ليتقدم نحوها، بابتسامة أو بلمسة أو بقبلة أحياناً. ثم يخفف عنه ثيابه فيخلع حذاءه أوّلاً، فتأتيه زوجته بمشّايته بدون أن يطلب منها ذلك، ثم تسأله إن كان يريد أن يشرب شيئاً، أو انها لا تسأله بل تدعه يشبع قليلاً من رؤية الأولاد. أغار.

أغار منه هذا الذي ضحكتُ عليه في سرّي. وهذا الذي لم تغادر صورته دماغي لحظة واحدة، بينما كنت أمضغ وأبلع، أو أحاول البلع. هو الآن في بيته مع عائلته وأنا الآن هنا.

فماذا كان ينقصني لأكون حذراً مثله؟ "درهم وقاية خير من قنطار علاج" ما أصحّ الحكمة القديمة. كان في مثل وضعي ذلك البشريّ الذي اخترع هذه الحكمة.

والإنسان يغص بريقه في وضع كهذا، فكيف بما أبلعه الآن.

شيء يقبض على عنقي ويلتف.

تنشد جوانب عنقي على بعضها. فما أصعب أن تكون مضطراً إلى ابتلاع ورق بلا أن ترفقه بماء.

والأخطر الأخطر انّ على الدفتر بعض الأسماء المورِّطة بالفعل، أسماء صار لأصحابها في ما بعد دور مع هذا أو ضد ذاك، وبعضهم ما زال، وبعضهم غَيِّر، وقد سبق والتقيتهم بالصدفة في مكان ما، على عشاء عند أصحاب، أو في مناسبة فرح أو حزن، ولسبب ما دَوّنتُ أسماءهم وأرقام هواتفهم على دفتري، فبَقِيَتْ عليه بحكم الطبيعة لا لسبب بعينه، و لم يحدث أن اتصلتُ بهم أبداً، ولا حتى فكرتُ في الاتصال بهم. فما هذه العلاقة التي تجمع ما بيني وبينهم إذن!؟

أو كيف أحدد للسائل علاقتي بشخص لا أذكره إطلاقاً، وقد دوّنت رقم هاتفه على دفتري الخاص، أو بالأحرى كيف أنكر هذه العلاقة، أو كيف أتنصل منها. هذه بالفعل مشكلة، بغض النظر عن الوضع الذي أنا فيه الآن. فلو وضعت نفسي مكان السائل فكيف كنت تصرفت!؟ بالطريقة ذاتها لا شك، وبشكل أقسى ربما، فهم، قياساً على ما يستطيعون وما يحق لهم، يتصرفون معي تصرفاً إنسانياً، نعم!

لنتكلم بصدق، ولندع النواحي الشخصية من الموضوع جانباً، فهل يمكن أن نقول انهم لم يتصرفوا معي بإنسانية! نعم بإنسانية!

قد يكون هناك بالتأكيد اعتراض على تصرّفهم من حيث هذا

التفصيل أو ذاك، ولكنه يبقى اعتراضاً جزئياً لا يطال الجوهر، مهما طال أموراً مؤلمة على المستوى الشخصي. والجوهر هو أنك كيف تبرر لمعنيَ بمعرفة صاحب اسم ما حتى العظم، وقد رأى اسمه بعينيه الاثنتين على دفتر تلفوناتك، كيف تبرر له جهلك به أو نسيانك له أو، أو، أو... فهو لو صدّقك لكنت أنت بالذات أول المتعجبين.

(– مش مظبوط؟)

فالمنطق ألا يصدق، واللامنطق أن يصدق.

أما أنا فلئلا أقع في هذه الورطة، كنت مع ابتلاع المسألة كلها، وإخفائها في جوفي، وطمسها برمتها، لكنني لم أستطع. كان ذلك فوق طاقتي. وكان عليَّ تحمل النتائج قاطبة، وهذا ما قبلته بلا تردد، فمن المؤكد المؤكد انني لن أتخلى عن نفسي في هذه اللحظات الحرجة. مستحيل. نعم هذا مستحيل أن أتخلى عن نفسي.

وهؤلاء (– غريب!) على درجة عالية من الثقافة. أنا بالفعل فوجئت بهم من هذه الناحية. تصور مثلاً.

تصور مثلاً، أن السائل، وأنت تحاول بلع ما مضغت من ورق، يقول لك:

– علَّكَ تجترّه فتتذكر!

إنه قول مركّب بذكاء غير عادي.

ثم أن الحظّ لم يساعدني، وان الشرّ لا قاع له: كان على دفتري اسم لشخص تبيّن انه اسم مستعار. لم أكن على علم بذلك أبداً، أقسم بكل

شيء، لكن ما نفع القسم، فـ"كل من خلق علق!" إن الإنسان مهما اغتسل لا بد أن يبقى عالقاً به شيء من أدرَان هذا العا لم. فكيف يمكن للإنسان أن يكون حذراً بما فيه الكفاية ليتحاشى المطبات المهلكة التي من هذا النوع. هناك بشر لا شك محظوظون فلا يقعون في مثل هذه الحُفَر.

أمّا محاوريَّ المحققون فكانوا على علم بكل شيء، بالاسم الحقيقي، وبالاسم المستعار، وبالسبب الذي أدى إلى استعارة الاسم أيضاً.

جوفُ الإنسان وسَخ، أحشاؤه وسخ... ولمّا عجزت عن البلع... كيف أقول... كيف أقول... ولما عجزت عن البلع، وهو أمر بالفعل كان فوق طاقتي، أحسست بأن شيئاً من فوق، من فوقي...

لا أدري بالضبط لماذا كنت عملياً عارياً. لا أذكر ما الذي أدّى إلى ذلك. لا أذكر أبداً، نسيت بالفعل، وهذا النوع من النسيان موضوعي يقرّ به العلم ولا ينكره أحد، وهو موصوف في الكتب الطبية ويعرفه الناس جميعاً، فأحياناً عندما يتعرّض الإنسان إلى صدمة ينسى ما جرى له نسياناً تاماً، يصبح عنده trou de mémoire ويصبح عاجزاً عن تذكر ولو تفصيل صغير يساعد على إعادة تركيب ما جرى.

أعرف شخصاً ربّاه قريبٌ له، وكان هذا القريب يحب أن يشتري أنواعاً مختلفة من موازين الحرارة، وان يأخذ حرارة الصبي مرات عدة في النهار الواحد وفي الليل، وكان هذا الولد سليماً ما به شيء على الإطلاق، لكن كان عليه أن يطيع. وكان يخبرني ما كان يشعر به. كان – قبل أن أنسى – كان يفرض عليه أن ينحني على التخت أو على

الكرسي، ورجلاه على الأرض، وكان يمنع عليه منعاً باتاً أن يتلفّت إلى الخلف، وإذا ما أخلّ صفعه صفعاً قاسياً، وكان يمنعه عن أن يئن إذا ما أحسّ بشيء يزيد على طاقته.

قال هذا الصبي (أي الذي كان صبياً) انه كان ينتصب تلقائياً رغم إرادته، ورغم كل الجهود التي كان يبذلها حتى لا! لأنه كان يعرف ما سيترتب على ذلك من تشجيع للآخر، وتبرير.

بالشّفرة! (أنا).

في فيلم روبرت ألتمان "شورت كات" تروي زوجة الطبيب لزوجها، أثناء شجار زوجي، ذهابها في السيارة مع رجل وتوقفهما إلى جانب الطريق وممارستهما الجنس هناك داخل السيارة، لكنها أكدت له انه لم يُنزل فيها. فدُهشتُ.

أنا لم أرَ هذا الفيلم، إنما قرأت السيناريو مترجماً في كتاب إلى اللغة الفرنسية.

دُهشت لكونها أكدت له انه لم يُرِق فيها، لأنني لم أرَ الفرق بين انه فعل ذلك أو انه لم يفعل، فالحادثة الأساسية بالنسبة لي وقعت والباقي تفصيل، ثم فكرتُ في الأمر طويلاً محاولاً معرفة دوافع هذا التأكيد، خاصة انه صيغ بطريقة مثيرة، تسمّي الأشياء، وتجعلها حاضرة لاهبة متأججة، فافترضت انها قالت له ذلك حتى تطمئنه من ناحية العدوى بالسّيدا، خاصة أن الزوج طبيب، ودمتُ على هذا الافتراض حتى اليوم، أقصد حتى اليوم الذي جرى لي فيه ما جرى، وأدركت الدافع الأساس إلى هذه الملاحظة: قالت له ذلك لتُفهمه شيئاً

جوهرياً، وهو أن ممارستهما الجنس بقيت ناقصة لم تكتمل، بسبب عدم إراقته فيها، لذلك يمكن اعتبارها، وإن بشيء من التعسف، كأنها لم تكن، أو في حكم ذلك، أو شيء كهذا، فلا يجوز البناء عليها في اتخاذ المواقف. وأرادت أيضاً أن تقول له انه بالعكس، لو أراق فيها لكان الفعل اكتمل، ولكان الأمر اختلف، ولكان الشيء أخذ كل ما له من أبعاد ومفاعيل. ساعتها مثلاً – لو اكتمل – كان يحق له أن يقول لها: – يا منـ..! ويا شر..! ويا خائنة! او يا إلخ... وان يتصرف على هذا الأساس.

اكتمَلْ!

وبعدها جرى التجريح بالشفرة، بعدها على الفور، وربما أثناءها. أي قبل أن يذبل

قالوا إنني انبسطت، وان البرهان لا يَخفى، (صحيح أن البرهان لا يخفى لكنني لم أرَ برهاناً ولا شيئاً)، وانني لذلك لا يحق لي الاعتراض ولا التذمر، أما الرفض فكان من باب الممانعة، وأما الممانعة كانت من باب الدلع والغنج والدلال...

– يا ابن الدلال!

ليست رفضاً، ليست رفضاً، فما هي إلا ممانعة، ألا ترى! أم أن ما تراه عصا؟ وإذا كان عصا فيجب ألا تتألم، خذ إذن: طق... بالشفرة.

– بلى! نحنا جايينك تا نبسطك!

وبالشفرة مرة ثانية وأخرى قبل أن يذبل.

أمّا الوجع فبَعدَان، حين تروق الخواطر. والوجع اثنان، وجعان، مكانان.

بعد ذلك صار اسمي "المنـ..." وقبلها لم يكن لي اسم، و لم يكونوا بحاجة لأن يكون لي اسم، بحيث أني لم أُسأل عنه، ولا حتى عن مدينتي أو قريتي، ولا عن مهنتي، ولا عن شيء عنّي - عمّا في أوراق الهوية - على الإطلاق، وقد أدهشني هذا التصرف الذي عجزت عجزاً نهائياً عن فهمه، وعن إدراك الغرض منه، فالاسم في بلادنا خاصة، نصف الطريق إن لم يكن كلها، وهو الذي بدونه لا يمكن الوقوف على أرض صلبة. لكن الآن صار لي عندهم اسم! سمّوني. هم أهلي.

(- أقول ذلك بغضب! صراحةً!)

الآن أيضاً أقول ذلك بغضب، نعم الآن! فلا يحق لأحد أن يغيّر اسم أحد بلا موافقة منه، أو رغبة. وهذا كشيء من ظلم أحسست به في تلك اللحظة، وما أزال عند رأيي حتى الآن، ولا أعتقد أني سأُغيّر.

وإنّ نسيان الأسماء غير تغييرها. أقول ذلك ولا أتعب من تكراره. ولا يجمع شيء بين الاثنين. فليس النسيان إهانة لصاحب الاسم، كما زعموا، إنما هو النسيان وحسب، حتى وإن كان في كثير من الأحيان محرجاً، يضع الآخر في موقع غير محبب ولا يحسد عليه. أما ردّي على القول بأن نسيان اسم الشخص ما هو إلا حذف له وشطب من قائمة الوجود، أي إعدامه بكل بساطة، فإنّ ردّي على هذا القول هو أنه خطأ. ثم ما هو ذنبي إذا كانت هذه بالفعل - كما يقولون -

رغبتي اللاواعية؟ فالمحاكمة على النية ممنوعة أصلاً في جميع القوانين والشرائع، وحتى الأديان تترك أمر النية إلى الله.

إنهم بالفعل مثقفون وأذكياء، لكن ثقافتهم وذكاءهم ليسا موجّهين نحو الخير دائماً، بل هما مستغلان لهدف آخر أحياناً، بحكم موقعهم الصعب، هذا الموقع الذي لا يمكن ألا يقود إلى الخطأ. ثم أن مشكلتهم الأولى هي الثقة، فمتى انحلت هذه المشكلة سهل كل الباقي، بل صار كل شيء بالنسبة إليهم كلا شيء. إذا وثقوا صَدَّقوا. وأنا شخصياً أعترف بأن أشياء كثيرة فيّ، لم تكن توحي بالثقة. هذا يجب أن يقال بكل صراحة وبكل وضوح وبلا مواربة، لأن الصدق فقط هو الدواء الفعّال ضد هذه الأوضاع، ولأنه وحده ينجّي نهائياً من هذه المهالك.

أقول إذن بصدق وبلا مواربة، بأنني لم أكن مصدر ثقة مثالياً بالنسبة إليهم، وهذا لا يعني انني كنت مذنباً أو انني أتحمّل مسؤوليةً ما، إنما الصدف وحدها شاءت أن يكون ما كان. فأنا لم يحدث لي مرة واحدة في حياتي أن فكرت بهذه الأسماء المدوّنة على دفتري، من زاوية علامات استفهام خطيرة، كتلك التي طُرحت عليّ – عن حق – أثناء مأزقي، ولست أدين نفسي لذلك، فالصدف وحدها، والصدف فقط، شاءت أن يكون ما كان. لكنني تعلمت!

لكنني تعلمت من هذه المحنة التي عشتها، بل تعلمت كثيراً جداً، فهناك الآن أشياء لا يمكن أن أهملها، كإبقاء الأسماء التي لا أذكر شيئاً عن أصحابها مدوّنة في دفتري، أو كشراء ساعة لا يحمل مثلها أحد، لا من حيث النوعية أو الجمال، بل من حيث الشُّبهة! أو بالأحرى من حيث إثارة التساؤلات، وأحياناً التساؤلات السّامّة التي قد تؤدي

إلى الشبهة. فإذا كان أصدقائي المقربون إليَّ شكّوا - نعم شكّوا بمعنى ما، وليس بالضرورة بالمعنى السيِّئ لكلمة شك، بل بالمعنى البريء، شكّوا مثلاً انني ما زلت عند مشاعري العروبية الأولى، وانني لم أصقل بعد هذه المشاعر و لم أطوّرها، بما يتناسب والظروف المستجدة دولياً وإقليمياً ومحلياً - فإذا كان أصدقائي القريبون شكّوا فَلِمَ إذن ألوم هؤلاء؟ هؤلاء الذين مهمتهم إزالة الشك لبلوغ الحقيقة. فهؤلاء طلاب حقيقة يكذب أو يخطئ من يقول العكس. إنهم طلاب وضوح. ولا بد انهم يجدون صعوبات قصوى في سعيهم لبلوغ الحقيقة وجلائها، لذلك فمن حقهم، من هذا المنطلق بالذات، من منطلق انهم يلاقون الصعوبات دائماً، بل الصعوبات التي لا تقهر أحياناً فيتهددهم الدمار، من حقهم أن يتوقفوا عند كل ما يثير لديهم الشك وان يسعوا بكل الوسائل - نعم بكل الوسائل - لإزالته والوصول إلى الوضوح. وأنا لا أنكر أنه هنا بالذات تكمن المشكلة، أقصد في اضطرارهم إلى استعمال كل الوسائل، لأن الناس - للأسف - لا يجيبون عن الأسئلة المطروحة عليهم بذات الهَمّ الذي يتحكم بتصرف السائلين، بل يجيبون بِهَمّ آخر هو الخروج من هذا - من المحنة والمأزق - بأسرع وقت وبأقل ضرر، وهذا بالضبط عين الخطأ، لأن فَهْمَ هدفِ السائل، مع القليل من التعاون، هما السبيل الوحيد والأسرع للخلاص بالسلامة التامة. هذا إذا كان هؤلاء الناس فعلاً أبرياء، أمّا إذا كانوا معنيين بمعنى ما أو مذنبين، فهناك المشكلة الفعلية، فكيف سيعترفون بالحقيقة، أو كيف سيساعدون على بلوغها؟

بكل الوسائل، للأسف الشديد!

يبقى أن المأساة في جوهرها تقوم على السؤال التالي: كيف يُميِّز البريء من المعني أو المذنب؟ بسرعة بسرعة حتى لا يكون لما يجري في الخفاء حظ الاستمرار والنجاح. فهذا الأمر أوّل ما يجب أخذه بالاعتبار، فهناك أشياء بأمها وأبيها تقوم على هذا النجاح وتنتج عنه.

والسؤال الآخر الأكثر صعوبة، بل الأكثر مأساوية، هو التالي: من هو البريء؟

لنبتعد قليلاً عن همّنا الشخصي، حتى نستطيع أن نرى بوضوح أكثر، لنأخذ مثلاً إسرائيل، فمن هو العربي البريء هناك، بعد أن تحدث عملية عسكرية ضد جندي إسرائيلي، أو ضد مستوطن، أو ضد أي مواطن آخر؟ فالعرب كلهم عرب هناك، حتى من تعامل معها! مأزق.

هو مأزق بالفعل.

فمتى يكون البريء بريئاً؟

وإذا ما عدنا إلى موضوعي الشخصي، فإنّ مشكلتي كما سبق أن ذكرت كانت كامنة في اني، رغماً عني، قدّمت لهم موادَّ تدعوهم إلى الشك بي. وأنا لا أقول هذا الكلام لأني أحبهم أو لأني أريد الدفاع عنهم، وإنما لأُشير إلى المأزق الذي لا بد أن يصطدم به كل مراقب للمسألة بتجرد ونزاهة بعيدين عن الهوى والمصلحة.

أكرّر: هذا لا يعني أبداً أبداً انني مذنب. أبداً. فأنا خالي الذهن مما حلّ بهذه الصورة، وليست هذه طريقتي في إبداء الكُرْهِ والاعتراض. وهذا قول صادق لا أكذب فيه ولا أداري. وما مصلحتي في الكذب أو في الإخفاء أو في التنصل أو في أي شيء من هذا، بعدما جرى الذي

جرى، وبعد إصابتي بهذا الجرح الذي لن يندمل أبداً.

(– صحيح، إن شاء الله سيندمل!)

إن الكذب في مثل هذه الحالة دناءة بحت. فما خوف الغريق من البلل؟

هذا لا يعني إذن انني مذنب، وإنما يعني أنني لا أستطيع أن أترك غضبي عليهم يبلغ حدَّه الأقصى! فكلما أحسست بالغضب يتآكلني (– نعم صراحة، يتآكلني!) بل ينهشني كما ينهش حيوان حيواناً آخر، يجيئني أن هذا الغضب غير مبرر مئة بالمئة، لأن شكهم بي كان مشروعاً لما قدَّمت لهم من مواد ملموسة تجبرهم على ذلك! أموت!

أموت حينذاك من غضبي على نفسي. على علمي، بل رغم اقتناعي بأن اللوم ليس عليها. وأتذكّر عندئذ ذاك الصديق الذي رفض أن يدوّن الاسم على دفتره، عن وعي عميق، وعن إدراك حاد بالمحاذير والمخاطر التي قد تترتب على هذا التدوين، وأقول ساعتها إن الحياة قاسية! فمن أين جاءته هذه الميزة – هذا الحذر – ولماذا لم يخطر على بالي بالخالص، طَوال حياتي، أن أكون حذراً بالنسبة إلى هذا الأمر؟ لماذا؟ فأقول ساعتها إن الحياة ظالمة. أموت لأن غضبي عليهم لا يمكن أن يكون صرفاً خالصاً، لسبب فيّ، لأني لأني...

فهل اللوم فعلاً ليس على نفسي، وهل أنا فعلاً بريء، أفلم أجلب لنفسي المشاكل التي تناسب نفسي؟

إذا اعتبرنا الأفعال المرئية الملموسة فقط، فأنا بالتأكيد لست مذنباً،

بمعنى انني لم أمزق هذه الصورة أبداً، و لم أمدَّ يداً إليها، بل لم أرَ يداً تمتد إليها، لكن.

لكنني دائماً تلفت نظري هذه الصورة.

الحقيقة أن هذه الصورة كانت تلفت انتباهي كلما مررت أمامها. بل كانت (لا بد لي بقا من أن أَبُقَّ البحصة) تثيرني! نعم كانت تثيرني.

تستفزّني

كنتُ أحياناً، بل غالباً، بل دائماً، أَحذر من أن أتأملها، لأني كنت أخاف من أن تغلبني عفويتي، فأمزّقها بعفوية خارجة فعلاً عن إرادتي، فأنا كما سبق وذكرت، أخاف دائماً من أن تورطني نفسي في مشاكل لا قدرة لي على تحملها. وهي دائماً تورطني.

فهل أنا في الحقيقة اثنان؟

فهل أنا في الحقيقة اثنان على الأقل؟

فإذا كنت كذلك فأيّهما المسؤول قانونياً، أو أدبياً، أو أخلاقياً. وأي واحد مني الأصل.

أمرّ من أمام هذه الصورة فأنظر إليها نادراً مباشرةً، خوفاً من أن يكون أحد يراقبني، ليستطلع طبيعة مشاعري نحوها. وأنا مضطر يومياً إلى المرور أمامها مرات عديدة، لأنها بكل بساطة، معلقة إلى يمين باب مدخل البناية التي أسكن فيها، وأنا عادةً – وهذه صفة طبيعية فيّ منذ ولدت – ألحظ الأشياء التي على اليمين، أكثر من تلك التي على اليسار... هكذا، ليتمّ المرسوم! وليس في رقبتي عطب، ولا في

رأسي ولا في عينيّ ولا في أُذنيّ، إنما هكذا ينشدُّ نظري إلى اليمين لأسباب نفسية طبيعية أجهلها، فهل يعرفني إلى هذا الحد ذاك الذي ألصق الصورة إلى هذه الجهة؟ لا بُدّ. أو يعرفني الذي أرسله، لا فرق.

لا بد أن يكون في الأمر قصد، وان تكون وقعت عليّ القرعة. وقد قلت إن اللوم على الصدفة ولا لوم على نفسي. قلتها عن تفكير وقلتها عن إحساس، ومتى اجتمع الفكر والحس بلغت القناعة كمالها المطلق.

الصدفة!

قد وقعت عليّ القرعة. وهذا تمام المنطق أن يكونوا عمدوا إلى هذه الطريقة، للحدّ من موجة تمزيق هذه الصورة بالذات، من بين جميع الصور المنتشرة على حيطان المدينة، وكلها صور معلقة لأسباب كبيرة وجليلة وفي مقدمها الاستشهاد. لكن لِمَ الحملة على هذه الصورة دون غيرها، بينما الذين قضَوا كثيرون؟

جاءهم الأمر أن اقبضوا على كل من يثير الشك لديكم بين الساعة الثامنة والساعة التاسعة من صباحِ الغد، في كل أحياء المدينة، وحقّقوا معهم، وأبقوا على من يتأكد شكُّكم فيه، وإن لم تتأكدوا من شيء فعلِّموا العالَم بالجاهل! (– أكيد أن الفاعلين محترفون محنّكون خطرون حتى استطاعوا فعل ما فعلوه، على مدى أيام، في قلب النهار أحياناً، بلا أن يستطيع القبض عليهم أحد).

وكنت كلما مررت من أمام هذه الصورة، أشعر بأني مستفز، وكنت أحاول دائماً كُنْهَ بواعث هذا الشعور. فأزداد غضباً. كانت

هذه الصورة منتشرة في كل شوارع المدينة، هي ذاتها أينما كان، كأن هذا الرجل لم يتصوّر غيرها طوال حياته. وأكثر ما كان يستفزني فيها ابتسامته، وأنا دائماً تستفزني في الصورة الابتسامة، ابتسامة الرجال "الكبار" خاصة، فتكون الدنيا قائمة قاعدة في المدينة، أو يكون الهول يجري في شوارعها جرياً بينما هم دائماً مبتسمون (أمام آلات التصوير)، ليظهَروا للناس في مظهر الـ rassurants وان كل شيء under control وانهم هم الذين تنطبق عليهم قاعدة الرجل المناسب في المكان المناسب، وفي اللحظة المناسبة. نعم. والذي في الصورة يَبـ...

فهل يعني هذا انني حقاً مذنب استحق العقاب؟

لاحَظوا إذن انني أنظر إليه (إليها، إلى الصورة) بطريقة مختلفة (مريبة) – ومهمتهم أن يلاحظوا – ولاحظوا أن بصري ينشد دائماً إلى اليمين، فعمدوا إلى القبض عليَّ بدافع ما لاحظوه، وهدفهم من ذلك واضح: تربية الآخرين بي! خاصة انني استحق.

لم يكن في استطاعتي إطلاقاً أن أتصوّر أن كرهي الجوّاني لهذه الصورة سينعكس يوماً على وجهي أو على تصرفاتي، بحيث يبدو واضحاً للآخرين – وأي آخرين! مع انني كنت حذراً جداً، وأنا حذر بالطبيعة، فلا أذكر أنني نظرت إلى هذه الصورة يوماً بشكل مباشر وصريح لئلا أُثير الظن أو الشبهة، فمن يعرف أكثر مني أن الصُوَر مراقبة أكثر مما هي مراقبة جميع الأماكن الحسّاسة والخطرة، وخاصة هذه الصورة بالذات لأن تقديري لها كان أنها المقياس والجوهر. لذلك كنت أنظر إليها شزراً، أقصد بطرف العين، من تحت إلى تحت،

خلسة، وكنت أتحرّق أحياناً للبحلقة فيها عن قرب وتأمل تفاصيلها، فأنا حتى الآن لا أعرف بالضبط ما عليها ولا أعرفها إلا عامة، شيء ما في داخلي قوي جداً، جارف، كان يدفعني إلى تأملها بدقة حتى امتلئ منها ومن تفاصيلها، لكنني كنت أمنع نفسي من الاقتراب منها لئلا يُفسر وقوفي الصريح أمامها تفسيراً ليس في مصلحتي. وكنت دائماً أتساءل، خاصة في مثل هذه الحالات حيث تكون نفسي مشدودة بسببها، انه إذا كان النظر إلى الصور مشبوهاً فلماذا تلصق على الحيطان في الشوارع والساحات والقاعات والأماكن العامة والخاصة.

وكم جرّت هذه الصور من أهل إلى مشاكل لم تكن في بال، فدفع الأهل عفوا ثمن تصرف أولادهم "البريء"، والطائش أو غير المسؤول. لكن هذا الثمن الذي دفعوه لم يكن - والحق يقال - ظلماً أو طغياناً بل كان مبنياً. نعم مبنياً. وأقول مبنياً ولا أقول مستحقاً، لكنه في كل الأحوال ليس ظلماً بحتاً أو تعدياً. لم يحدث أن مزّق صبيّ صورة يقدّس أهلُه ما تمثله، كصورة السيد المسيح مثلاً أو صور الأولياء والقديسين أو صور أو أوراق عليها آيات قرآنية. بل لم يحدث أن مزق صبي صورة رجل يحبه الأهل ويحترمونه، وان حدث هذا فنادراً، وهو الشواذ وليس القاعدة. ليس ظلماً إذن. يجب دائماً وضع الأمور في نصابها. لئلا نجعل من الحبة قبة، ومن التين عنباً، ولئلا يختلط الحابل بالنابل.

من الصعب جداً على الإنسان البريء أن ينظر إلى براءته عن قرب، أو أن ينظر إليها بعين محايدة. ومن المستحيل أن ينظر إليها بعين الخصم أو العدو. وهذا بالتأكيد خطأ. بل عين الخطأ. والصواب أن ينظر

الإنسان إلى براءته بعين محايدة على الأقل. على الأقل. أو بعين الخصم، وهذا هو المطلوب. أو بعين العدو. نعم! بعين العدو، وإلا فسيبقى على الدوام معرّضاً للوقوع في ما وقعت فيه.

(– ساعتها بيكون بيستاهل!)

لا أظن أن أحداً يعرف نفسي كما أعرفها أنا. لذلك أقول ما أقول. أنا أَعْرَفُ بنفسي منها بذاتها، لذلك أخاف منها وهذه حقيقة واقعة. في كتابه "حياة سلفادور دالي السرية"، يروي سلفادور دالي وهو ذاته المؤلف، انه لم يكن يدري أبداً كيف تتطور مشاعره التي كانت دائماً تأخذ مناحي مفاجئة غير متوقعة، ويروي عدة حوادث جرت معه كمثل على ذلك، منها انه كان صغيراً جداً حين كان مع صديقه الصغير يتمشيّان على الجسر وفجأة دفع رفيقه من أعلى الجسر على علوّ عدة أمتار فتكسّرت عظامه وكاد أن يموت، ويروي أيضاً أن العائلة والضيوف تسارعوا مرّة إلى الخارج لرؤية طائرة في الجو، وفي لحظة ما بينما هو راكض وراءهم تلفت إلى الوراء فرأى أخته الصغيرة تدب لتلحق بالجمع، فما كان منه إلا أن استدار ولبطها (عند عينها على ما أذكر)! وأنا حين قرأت هذه القصص خفت حتى اضطربت وخفق قلبي، وشعرت أنه إن تابع رواية الأخبار، فسيروي بلا شك قصص عنّي حدثت معي شخصياً، أنا بالذات، وبالضبط تلك الحادثة التي أطلقت فيها النار من بندقية صيد على صديق لي ورفيق، لا لقتله بدافع ما كالغيرة أو الكره أو أي شيء آخر، بل لإطلاق النار عليه وقتله بلا دافع وبلا رغبة في القضاء عليه. وهكذا... للقتل وليس للأذى. وكان القاضي شديد التفهم لكل ما قلته، لكن ما قلته كان رداً على أسئلة بلا

أهمية عندي، وخارجة عن الموضوع، ولا علاقة لها بالجوهر أبداً. كنت أعرف ما الذي يتوقعونه مني فأستجيب له تماماً:

– هل أطلقت النار عليه؟

– نعم.

– ألـم تخَفْ من أن تقتله؟

– لم يأتِ على بالي أني قد أقتله.

– لماذا أطلقت النار عليه؟

– ... سكوت.

كان عمري سبع سنوات، وكنت أنا وصديقي نرافق والدينا في رحلة صيد، وفي لحظة كنا أثناءها نرتاح رأيت صديقي ذاهباً إلى لا أدري أين (فيما بعد عرفت إلى أين)، فتناولت بندقية والدي في غفلة منه، وأكاد أقول في غفلة مني، لأني لم أقرر ذلك أبداً بل لم أُرِدْهُ، وصوّبتها نحو صديقي بالذات وأطلقت النار فأصبته، لكنني لحسن حظي (– وحظه بالتأكيد! عفواً!) لم أقتله. وكانت إصابته بالغة، لكنها لم تتعدَّ هذه الحدود، ولم تشكل خطراً على حياته، ولا على أي شيء فيه، ولم يبق منها إلا أثر في رقبته وفي أذنه هيئةٌ فقط، حتى اليوم. لكن القضية بلغت يد القضاء، لأسباب خارجة عن إرادة والدينا اللذين كانا من اللطف – خاصة والده – بحيث انها كانت مناسبة لإظهار مدى عمق الصداقة بينهما، وبالتالي بين عائلتينا.

– المهم ما صار في موت، ولا عطب!

كان الجميع يردد هذه العبارة التي كنت أطمئنّ عند سماعي لها، لأنها كانت في الحقيقة تنقل إليّ اطمئنان الناس، ولكنني في أعماقي لم أكن أحس أبداً بما تعنيه: لَمَ أن عدم وقوع الموت هو المهم وليس الموت؟ أقصد أن عدم الموت ليس شيئاً مهماً، ففي كل يوم بل في كل ساعة وكلّ لحظة "يوجد" عدم موت! (هكذا كنت أفكر في تلك المرحلة من عمري، وهكذا كنت في صغري ميالاً إلى التأمل والفلسفة).

– لماذا أطلقتَ النار عليه؟

– ... سكوت! سكوت!

وكان القاضي حين كنت أسكت يشفق عليّ، فأشعر انه يريد أن يضمني إلى صدره وان يقبلني. لا أدري لماذا كان سكوتي يثير فيه هذه المشاعر النبيلة تجاهي. لكنّ والدي حين ألحّ عليّ بالسؤال ذات مرة أجبته بأنني لم أكن أتوقع أن يبلغه الرصاص. كنت اعتقد انه بعيد جداً، لا يمكن أن يطاله شيء، وقلت له: الحقيقة انني كان في نيتي، بعد أن أطلق النار عليه، أن أقول له: "فزّعتك"! وكنت أحس بالحرمان لأن الأمور جرت بحيث أني لم يتسنَّ لي أن أقول له ذلك. هذا ما قلته لوالدي، وهو كلام مقنع، بل لا يُرَدّ، لأنه يبدو عميقاً، أو إنه كذلك، لكن ليس كلُّ عميقٍ حقيقةً.

وإنّي إلى وقت قريب، كنت دائماً أخاف من نفسي أن أدفع صديقي الماشي حذّي على الطريق، في اتجاه السيارة المسرعة، فأبدّل لذلك مكاني، فآخذ محله، وأترك له جهة الحائط، ليكون هكذا في مأمن من عفوية تتخطى، رغماً عني، ما يجب أن يكون.

إن الناس تستدعي مشاكلها. هذا شعاري الذي استرشد به في هذه الأمور.

وأنا أعرف، بل أعرف جيداً، أن الحياة صعبة هكذا، أن نمضي الوقت نجلد الذات، نجلد أنفسنا، فلا يكون في استطاعتنا أن نغضب غضباً عارماً وصافياً على الظالم (– الظالم بين هلالين)، خاصة إذا كنا نحن المظلومين. أعرف!.. ولكن إلى أي حد هو ظالم هذا الظالم الذي سألك عن الشخص الذي دوّنت اسمه بيدك على دفتر تلفوناتك، ودوّنت رقم هاتفه، وهو رقم صحيح، وسألك أين تعرّفت إليه وفي أي مناسبة، فتقول له لا أدري، فهل هو معتوه ليصدّق.

نعم قد يكون هذا صحيحاً، لكنه peu plausible بالنسبة إلى محقق، وخاصة بالنسبة إلى محققين من هذا النوع الخاص الذي أمثل أمامه. ثم علينا ألا ننسى انه قد!

فقط قد!

قد يكون صحيحاً!

فكيف يُطلب من محقق، ليس ككل المحققين، لأن رأسه في الدق، أن يعتبر هذا النسيان صحيحاً بكل بساطة، وهو (فقط قد) يكون صحيحاً. لذلك فإنني أعتقد أن الحياة بذاتها قد تكون ظالمة، وان الصدفة قد تكون قاتلة.

نعم قاتلة! لأن ما جرى لي ليس خبرية تُهزهَز بها أَسِرّةُ الذين يسمعونها، فيناموا آمنين مطمئنين، وقد ذكَرتُ ما ختمت به خبريتها زوجةُ الطبيب في فيلم روبرت آلتمن "شورت كاتس"، أكّدت له أن

شريكها في ذلك النهار في السيارة لم يُكمل فيها.

أما أنا فصار لي بعدها اسم آخر جديد، أعطوني هم إياه ليحل محل الاسم الذي اختاره لي أهلي، وبه غُنّجتُ طويلاً وما أزال، وبه ناداني رفاقي ملايين المرات، وناداني به البعيدون والقريبون واخواتي واخوتي، وزوجتي وابني.

(– فهل كان هذا العمل ضرورياً؟ أشك في ذلك!)

بل حرصوا على أن ينادوني باسم الجديد في بيتي، عندما اقتادوني إلى بيتي، وأرادوا أن أستضيفهم وزوجتي على فنجان قهوة، لإكمال الحديث، وكان ابني جالساً قربي (لا في حضني) لأنهم...

كان ابني جالساً قربي لسبب: فحين اندفع نحوي عندما فتحت الباب (لم يسمحوا لي أن أرنّ الجرس لأُخْطِر زوجتي، كما هي العادة بيني وبينها، عندما أعود إلى البيت مع زوار لا تنتظرهم ولا تتوقع قدومهم معي. لم يَسمحوا لي بذلك لئلا تحتاط للأمر فتخفي ما لا يجب إخفاؤه. أو انهم ومن باب الضغط عليّ، أرادوا مفاجأتها وهي في وضع ما غير لائق، أو انهم أرادوا الإثنين معاً، وهذا هو الأقرب إلى المنطق). فحين اندفع إذن ابني نحوي، بعدما سمع الباب يُفتح، قالوا له "خليك بعيد"!

وأنا كنت أريده ألا يقترب، أن يبقى بعيداً، حتى لا يشهد (وعن هذا القرب!) هذه اللحظات البشعة. فأبشع اللحظات حين يُهان الأب أمام ابنه. فعندما كنت أسمع عن آباء يتعرّضون لهذا النوع من المعاملة، من قبل عناصر مسلحة على الحواجز في الطرقات مثلاً، أو في

بيوتهم، دواخل منازلهم، أو في الأمكنة المختلفة الأخرى، كنت أتألم كثيراً، وأذكر أن أحد الناس أخبرني ذات مرة ما حدث له شخصياً على أحد الحواجز، قال إن الجندي صفعه أمام ابنه، لأنه لم يوقف السيارة عنده تماماً، فتعداه قليلاً بحيث اضطر الجندي أن يتقدم خطوة واحدة أو خطوتين، فأمره بالنزول وحين وقف أمامه صفعه بقوة، فوقعت من يده (من يد الجندي) سيجارة كان يدخنها، فأمره أن ينحني ويلمها، وكان عليه أن يطيع. لم ينظر إلى ولده أبداً أثناء تلك المحنة، ولا بعدها بأيام. آلمتني كثيراً هذه الخبرية، كما تؤلمني الأخبار المشابهة الأخرى جميعها، لكنها تبقى للأسف أخبار الغير، وسرعان ما ننساها... إلى أن تحدث لنا، فنقيم الدنيا ونقعدها!

تمنيت من أعماق وجداني ألا يكون ابني هنا. أن يكون مثلاً عند... عند من؟ وهو منذ وُلد منذ خمس سنوات لم ينم مرة خارج البيت، وفي المساء تهتم به أمه، فتهيّئ له البيبرونة بعد أن تغسله وتلبسه ثياب النوم. فهو ما يزال يأخذ البيبرونة مرة واحدة في اليوم، عند المساء فقط، وهذا لا يزعجنا، أنا وأمه، أبداً، بل بالعكس نحب ذلك وننعم ثلاثتنا بهذه اللحظات. وأنا أجمل فترات النهار عندي المساء، عندما يُسرع نحوي مزغرداً، وأنا أفتح الباب، بابا بابا. يسمع مجيئي من لحظة تطأ قدماي سفرة الدرج، فيُؤَرْنِبُ أذنيه، ثم عندما يسمع المفتاح يدخل في الباب ينطلق، فما أن ينشقّ الباب حتى يكون هناك.

- "خليك بعيد"!

فلم يفهم هذا الصبي ما سمع، فتابع اندفاعه وهو ما يزال يزغرد بابا بابا...

... حتى الآن، حتى لحظة دخولي البيت، ورغم كل شيء، ورغم كل اللحظات القاسية التي أمضيتها، لم تنزل من عينيّ دمعة واحدة، لكن هنا، هنا في بيتي للأسف (– أقول للأسف! لأنه المكان غير المناسب أبداً)، أفلتت مني دموعي رغماً عني، فطفرت من تلقاء نفسها، كأنه كائن وحده لا علاقة لي به، وانحدرت على خديّ، واستأنفت انحدارها، وكنت بالفعل عاجزاً عن التأثير عليها فلا أستطيع أبداً إيقافها، و لم أعرف في حياتي كلها هذا الخليط من المشاعر القوية والمتناقضة والمختلفة والمتقلبة التي جاءتني، والتي كان السائد فيها الخجل، وهو ربما كان أصعب المشاعر عندي. الخجل من ابني!

لا!

لا! هذا فوق طاقتي.

وحين اقترب مني ابني كثيراً دفعه أحدهم بيده حتى لا يبلغني، لكنه لم يرتدّ، فدفعه عندذاك دفعة أقوى، فأوقعه على الأرض العارية، فالمدخل في بيتنا ليس مفروشاً بسجادة أو موكيت، فجاء لحسن الحظ قاعداً على قفاه، وكان لابساً غياره السميك فلم يتألم، لكنه مع ذلك انفجر بالبكاء، وكانت باديةً عليه مشاعر المفاجأة والضياع والحيرة وأشياء يحتار الإنسان كيف يقولها، فهي لا أسماء لها. أمّا أمّه، زوجتي، فتأخرت في الظهور عليّ، وكنت أتوقع بإلحاح أن تظهر عليّ وإن لم تكن تلك رغبتي، لكنها تأخرت وما زالت تتأخر.

لم تظهر عليّ زوجتي إن بينما كنت أتوقع منها العكس.

كنت أتوقع أن تستقبلني هي قبل الصبيّ لأنني تأخرت في العودة

إلى البيت على غير عادة. ألم ينشغل بالها إذن! وكنت أتوقّع أن تُبقي ابننا بعيداً، بعدها تتنبّه سريعاً إلى أن الوضع ليس عادياً فتأخذه، وتضع لعبه كلها بين يديه، وتغلق الباب عليه، فما الذي جدَّ إذن. قد أدهشني الأمر! أنا الذي في غنى عن الدهشة الآن، فما الذي جرى أيضاً عندي في بيتي أثناء غيابي؟ وتكاثرت الأفكار في رأسي، وخطرت في بالي الأشياء وأضدادُها، في لحظات يسيرة جداً، ثم غزلت واختلطت ببعضها ليتحول دماغي إلى ما يشبه الهيولى أو الفوضى أو الفراغ... وأعتقد أني غبت هنا عن الوعي، لأنني لم أذكر بعدها إلا أني على كرسي في المطبخ، وابني على كرسي حدّي جالس كالكبار، لا يؤاتي حركة.

نعم، نعم، جاءتني الجرأة وسألت ابني فيما بعد، فيما بعد هذا التاريخ بوقت، عن الذي جرى أثناء غيابي عن الوعي، فأجابني:

- "عمّو عمل" pi pi!

فهل هذا ممكن! وكنت أسأله في غياب أمه. واستطعت أن أفهم منه كل شيء. لقد عرفوا "المفتاح" وأحسنوا استعماله حتى أمام ابني وفي حضوره، ونجحوا في إعادتي سريعاً جداً إلى وعيي، ولم يكن عليهم أن يُجروا لي إسعافات صحية يجهلون ربما كل شيء عنها.

زوجتي لم ترَ هذا المشهد، أنا متأكد من ذلك تماماً وبلا أدنى ريب، فأنا لست ولداً صغيراً يتصرف على أساس أن ما يتمناه هو الحقيقة الواقعة، وأنا لست من النوع الذي يؤخذ بالأوهام، ثم انني لا أَبني قناعتي هذه على قولها هي انها لم ترني عندما دخلتُ، بل أبنيها على

ما شاهدت بنفسي، فهي لم تظهر إلا فيما بعد، بعدما كان صار لنا زمان في المطبخ، وحين دخلتْ علينا ونحن في المطبخ لاحظت فوراً رد فعلها على رؤيتها لي. أقول لاحظت رد فعلها مع انني لم أكن أرى بوضوح، كان في عينيّ غبش، لكنني كنت أستطيع أن أرى بإحساسي بشكل لا يخطئ، فقد رأيتها ورأيت رد فعلها الذي كان رد فعل من يرى أول مرة، لا ثاني مرة. هذه عندي حقيقة ساطعة لا مجال للبس فيها أو إشكال.

كنا على العشاء: نحن – أنا وزوجتي وابني – وهم. وكانوا ثلاثة. في المطبخ الذي هو في الوقت نفسه غرفة طعامنا. كانت زوجتي بطبيعة الحال تقوم لخدمتنا.

– "أنا أحب المرأة أن تكون ست بيت وبنت ناس في الوقت ذاته"! قال الذي بادرني بالسؤال أول المسألة والذي لم يعجبه الأكل على ما بدا من كلامه – بينما كانت زوجتي تضع له أكلاً في صحنه. فلم تجب بشيء.

– أهكذا تكرّمون ضيوفكم؟ قال الثاني – يقصد بذلك الأكل الذي لم يعجبه. فزوجتي قَلَتْ بيضاً، وفتحت سرديناً، يعني قدمت أشياء من حواضر البيت، لأنها أولاً لا تريد أن تكرّمهم، ثم لأنهم منعوا عليها الخروج من البيت، ومنعوها عن استعمال الهاتف أيضاً، وعن الرد عليه. وحين كان يرن الهاتف وقد رن مرات كثيرة – فالمساء هو الوقت الذي يرن فيه الهاتف أكثر شيء – كان الصبي يخرج عن صمته ويقول لأمه: "ماما تلفون"، فيُسكته أحدهم، بالكلام أولاً ثم بالنكع إنْ لم يسكت، فيعود هذا الصبي ويغرق في صمته من جديد.

- أنا لن آكل من هذا الأكل قال الثالث، "كل شي أنت طيّبة كل شي أكلك مش طيّب"، أنتِ أطيب من أكلك!

أنا سمعت بنفسي ما قاله هذا الأخير، سمعته بأذنيّ الاثنتين اللتين كانتا ما تزالان سليمتين لم يصبهما سوء قاتل. فأصبحت في لا مكان عندما قال هذا الكلام، تلاشيت، و لم أنظر إليها لأنني خجلتُ ولأنني كنت عاجزاً عن التماسك إن هي نظرت إليّ، ولا أعرف ما إذا كانت هي نظرت إليّ. لا أدري أبداً، و لم أسألها فيما بعد، ولا هي سألتني.

عندما دخلتْ علينا أول مرة كان شعرها منفوشاً، وكان قميصها بل كل ثيابها، كأنها خارجة من قتال بالأيدي. ولكنها...

ولكنها يا آلهة الأرض ويا شياطينها، قد أطلّت علينا وحدها، وهؤلاء الثلاثة الذين جاؤوا معي إلى هنا لم يفارقوني لحظة، و لم يدم غيابي عن الوعي أكثر من لحظات، وفي أسوأ تقدير لم يتعدَّ الدقائق القليلة، فما الذي جرى إذن.

- لكل شيء حدود! قلت، لكنْ كأني أوجه الكلام لنفسي، إذ قلتها وأنا مثبت عيني في الصحن أمامي، وبقيت لحظات هكذا لا أرفع رأسي خوفاً من أن أرى ما لا أريد رؤيته، لكنني أحسست انهم جميعهم تبسموا، ثم قال أحدهم لرفيقه وهو ينظر إليّ بالتأكيد: - لو يتكلم عندما يجب!

ثم امتنع الثلاثة عن الأكل، وأصروا على "وقعة" تليق ليس بهم (مش ميشانّا!) بل بأهل البيت. وزوجتي حادة الطبع أحياناً، ولا تملك السيطرة دائماً على رد فعلها، فكنت لذلك دائم الخوف أن

تطلع بوجههم وتصدمهم بردٍ عصبي. وخوفي كان ليس لأنهم لا يستحقون، فبالعكس انهم يستحقون وأكثر، بل لأنهم قد يسيئون إليها "بمثل ما أساءَت إليهم". كنت خائفاً من أن تقول لهم مثلاً بأننا نحن قوم يعملون، وانه علينا النهوض باكراً، لذلك فلا نستطيع السهر إلى ما نشاء. فكانوا ردّوا عليها بأنهم هم أيضاً يعملون وإلا لما كانت رأتهم هنا أبداً.

– ولاّ مفكّرتينا منحب أنْسك كتير!

– مْننْهْنْهلْبْهْه همدرتُ هكذا، أصدرتُ أصواتاً أنا نفسي لم أُدرك لها طبيعة، وعيناي دائماً في صحني الذي ما يزال فارغاً.

– "شو بو هالبغل"! سأل أحدهم مستفسراً عما قلته!

– البغل أبوك! ردت زوجتي التي كانت على المجلى. ثم أضافت: قوموا كلوا ببيوتكم!

فساد الصمت فوراً. كصمت من يصوّب ليطلق النار. فعلى من يصوّبون ومتى يطلقون. وبكى في هذه اللحظة الصبي، فصفعه الذي حدّه، "فناولته" زوجتي بصحن كان بيدها فمرّ قرب رأسه، وكانت أصابته أنا أكيد من ذلك لو لم يكن الصبي قربه فخافت أن تصيبه، فانكسر الصحن على الحائط، فوقف الرجل بهدوء ظاهر وتقدم نحوها، فابتعدت حين رأته يقترب منها، فقفز نحوها وقبض على شعرها، وجرّها جرّاً إلى الداخل بالقوة، بينما كانت هي في هذه الأثناء تحاول التخلص منه وتصرخ وتشتمه. قال لها عبارة واحدة أثناء كلّ ذلك – أقصد أثناء ما جرى أمام أعيننا. وقالها برواق المعاتب الحزين

الهادئ. قال: لا تحترمين وعداً يا شرموطة وأنا لم أعد اسمع بعد ذلك إلا بكاء ابني وصراخه، فالتفتُّ إليه في لحظة من اللحظات، بعدما خلا المطبخ من العراك، وحاولت حمله لإسكاته ومؤاساته، فناوله مني أحدهم، وأعاده إلى محله بحركة ناشفة كأنه يعيد إلى محله صندوق خضار مجففة، ونادى بصوت عال جداً لم آلفه أبداً من قبل منه أو من أحد منهم (فهل هو الرّيّس؟)، قال إن هذا الولد يجب أن ينام فوراً، لأن العمل هذه الليلة كثير. وبعد هذا النداء بدقائق عاد الذي جرّ زوجتي إلى الداخل وهي معه، وقال: هيّا فوراً نيّموا الصبي. ولكن كيف ننيم الصبي بهذه السرعة التي يريدون فليس الأمر بيدنا، يلزمه وقت ليغفو، و لم يأخذ بعد البيبرونة.

- فوراً! رددها مرّة ثانية، لكن ليس هو ذاته، بل الذي يبدو عليه انه الريّس.

فتناولته أمه وحملته إلى غرفة النوم، فتبعها هو ذاته ليساعدها، كما قال بصوت مسموع من جميع الحاضرين:

- جايي ساعدك

لكننا في المطبخ كنا نسمع دائماً حسّاً يأتي من غرفة النوم يفيد أن الصبي لم ينم بعد، فقال لي أحدهما: أتعرف انك بغل! فلم أفهم السبب المباشر لهذه الملاحظة، خاصة أن ظني إن كان يجب أن يذهب إلى شيء فإلى الأصوات غير المفهومة التي أصدرتُها منذ فترة. ثم قال: أليس عندكم حبّة منوِّم، أو شيء من هذا؟

هنا فقط فهمت.

لكن ما عندنا هو حبوب منوّمة للكبار، وليس للصغار، فلم نحتج يوماً أبداً لهذا حتى ننيم ابننا، فهل يُعطى الطفل منها. نصف حبة بدل الحبة قال، ثم نادى على زوجتي بصوت عال لتسمعه في غرفة النوم وناداها باسم ابنها بكل تهذيب وقال لها أن تكلمني:

– كلّمِي زوجك يا أمّ... ليس من اللائق أن اذكر اسم ابني هنا، فقد يتعرّف عليه أصحابه.

بل هو ذاته قد يعرف انه المقصود بهذا الاسم في يوم من الأيام، لذلك يجب أن أتحاشى ذكره، فابني الآن ما زال في هذا العمر الصغير ولن يبقى له في ذاكرته مما حدث شيء، سينسى، وسنساعده على النسيان، أنا وأمه، وخاصة أنا.

(أنا بالتأكيد)

فحضرت زوجتي يتبعها الذي كان يساعدها، ومعها الصبي بين ذراعيها تشدّه إلى صدرها، فتطلعتْ في الجميع ما عداي، فقال لها الذي ناداها: زوجك يريدك، فقلت لها أن تعطيه ربع حبة منوّم من الحبوب الموجودة في الدرج قرب التخت.

– بغل! قال الذي يقولها دائماً. وقال موجهاً كلامه لزوجتي:

– أعانكِ الله عليه، فلكِ السماء بلا شك لِما أنت تتحمّلين منه.

ثم قال:

– نصف حبة!

ثمّ قال متابعاً، لكن موجهاً كلامه إليّ:

- يا بغل!

فذهبت زوجتي فوراً، وبلا أن تقول كلمة، لا من باب القبول ولا من باب الرفض ولا من باب الاعتراض، فذهبت إلى غرفة النوم وعادت بعد لحظات بلا الطفل، عبّأت- كباية ماء وتوارت من جديد، ثم بعد دقائق لم نعد نسمع شيئاً.

- خيّ! زفر بهذه التنهيدة أحدهم، فأحدثت زفرته صدى عند رفاقه الآخرين.

أمّا همّي كله في هذه اللحظات فكان عند ابني، فهل أوقفت نفَسه هذه الكمية، أليست كثيرة عليه، ألم تُنقِص منها أمه قليلاً، فقد كان في استطاعتها أن تفعل ذلك، لأنها كانت وحدها و لم يتبعها أحد. كنت أود أن أقول شيئاً يستدعي منها رداً يطمئنني، كأن ألاحظ مثلاً انه غفا بسرعة، فتجيبني هي بأن قليلاً جداً من هذه الحبوب، كاف لولد في هذا العمر حتى يغفو فوراً، خاصة إذا كان كابننا غير معتاد أبداً عليها، فهي تفعل في هذه الحالة فعلها بسرعة وقوة. لكن من المستحيل الآن أن يجري هذا الحوار المرمّز بيننا، فهم بالتأكيد سيفهمونه، وسيتخذون منه حجة لتوجيه اللوم إلينا، وربما الإهانات، وخاصة إليّ. هذا إن سمحوا لنا بإجرائه.

- والآن؟ قال الذي ناداها. هل ما زلتم جائعين أم أنكم شبعتم من رؤية الأكل فقط. أنا من ناحيتي لم أشبع، أضاف، ولا أستطيع أن أنام إن لم أشبع، لا يمكن أن يغفو لي جفن.

سينام إذن هنا ضيف العشاء!

لن يكون العشاء إذن آخر المطاف، بل سنقضي الليل بطوله أيضاً. فكم سيكون طوله طويلاً هذا الليل. وهل سيبقى معه رفاقه. فلا أمكنة عندنا كافية لاستقبالهم، أم أن كل واحد منهم حدّد لنفسه مكاناً ينام فيه، وان أحداً... سنرى.

- لا تمت يا رجل قبل أن يجيئك الموت! قلت لنفسي.

- شو؟ قال الذي كان يرافقها إلى الداخل.

كانت زوجتي في كل هذه الأثناء، بعد عودتها من تنويم ابننا (أو تخديره)، ترتّب المجلى بحركات آلية وعصبية. فلم تجب بشيء على تساؤلهم.

- شو؟ قال الثالث، الذي كان في هذه اللحظة ورائي يربت على كتفي. قالها بصوت قوي وملحّ، ليُفهمنا، أنا وزوجتي، أن الأمر بات يستدعي جواباً، أو رد فعل أو مبادرة أو أي شيء، إلا السكوت.

- ما عندنا مطعم! أطلقت زوجتي، باختصار واقتصاد ودقة وصراحة وصرامة. طلقة واحدة وحيدة كافية لا حاجة بعدها أبداً لتكرار.

فماذا تخطط زوجتي إذن، ماذا وراء دماغها لتدفع الأمور هكذا في اتجاه الحائط المسدود، في اتجاه المجابهة الميؤوس منها. فهل تملك معطيات لا أملكها، وهل أجرت حسابات لم أقدر على إجرائها. أم ماذا؟

فلماذا لا تُظهر، في ما يتعلق بالعشاء، بعض حسن نية، فتقول لهم مثلاً، على سبيل الاعتذار، أن هذا ما عندنا الليلة، وانها لم تكن تتوقع

قدوم أحد لتكون مستعدة، وانها على استعداد إن شاؤوا، أن تنزل إلى الدكان قبل أن يقفل، لتشتري ما تستطيع به تحضير وجبة عشاء لائقة. فعلى زوجتي العزيزة أن تفهم انهم لم يأتوا ليأكلوا، بل ليرَوا ويسمعوا ويعرفوا ويتأكدوا، وهذا - في رأيهم - يكون بالطريقة التي يتّبعونها. ثم أن معالجة هذا الأمر - في رأيهم أيضاً - تحتاج لكي تتوافر لها شروط النجاح إلى قدر مناسب من الاستفزاز، حتى يَخرج المُستفزُ عن طوره ويبوح بأشياء لا يمكن أن يبوح بها إذا كان هادئاً. هذا منطق قد لا نوافقهم عليه نحن لأننا لا نريد أن نكون ضحيته، لكنه منطق يستطيعون الدفاع عنه بسهولة، فلنتركهم إذن على منطقهم لأننا لا نستطيع تغييره، ولا هم يستطيعون تغييره، وليكن علينا فقط أن نُبدي لهم حسن نوايانا ورغبتنا المخلصة والحقيقية في المساعدة على جلاء الحقيقة التي يريدون جلاءها. فكيف تعمل زوجتي بخلاف هذا المنطق الذي لا يُردّ أم أن الفهم لديّ تعطّل وتعطّلت قدرتي على الإدراك، وبتُّ عاجزاً عن إجراء أي حساب.

فماذا إذن وراء دماغها؟

أمّا إذا كان منطقها هو انهم في كل الأحوال، ومهما كنا ملاحاً معهم، سيسيئون إلينا، فلنؤذهم إذن ما استطعنا، فأعتقد انها مخطئة تماماً، لأنها تكون بذلك متجاهلة للوضع ليس هنا فقط الآن، في بيتنا، بل في البلد كله، أو انها تكون جاهلة إياه، وهذا أقرب إلى الحقيقة لأنها لا تتابع الأخبار أبداً، لا في الصحف ولا في المجلات ولا على الإذاعة ولا على التلفزيون، ولا حتى في الأحاديث مع الناس، فهي أكره شيء عندها الحكي بالسياسة. لو أستطيع أن أوضّح لها ذلك!

الآن لو يسمحون لي بالانفراد بها دقائق فقط لأوضح لها الأمر، لأقول لها أن الوضع في البلد اليوم يسمح بأشياء كهذه، وإن كنا نحن الناس الطيبين لا نؤيدها، فلندع العاصفة تمر فلا تقتلعنا، فاقبليهم كضيوف، العبي لعبتهم، هم سمّوا أنفسهم ضيوفاً فليكن، الكلمة تُلزم أحياناً، فلنعاملهم كضيوف فربما تصرفوا كضيوف، لنحاول كل المخارج فلا نترك احتمالاً بلا أن نستغله، فلا نقطع الأمل ولا ندفع الأمور نحو المجابهة التي ستكون بالنسبة إلينا انتحاراً بلا شك. لأنني يا زوجتي العزيزة، لا أدري كيف تتصورين انك ستنتصرين، وعلى من، أعلى هؤلاء، فما هم سوى أداة، اقصد مأمورين ينفذون الأوامر، أم على أولئك وهم في غفلة تامّة عمّا يجري لكِ الآن، فإن أردتِ إيلامهم بشيء، كأن تجعلينهم مثلاً يشعرون بالذنب بسبب انتحارك، فلن يتوفّر لهم أن يسمعوا بما حدث، وحتى الناس أمثالك فإنهم سيعتقدون، إنْ سمعوا بك، غير ما قصدتِه بموتك، والبرهان على صحة قولي سهل جداً، بل لا شيء أسهل منه: فهل سمعتِ يوماً بمن تصرف كما تودين أن تتصرفي الآن؟ أما تعلمين انك لستِ الأولى الذي يعلق في هذا النوع من الورطات ولن تكوني الأخيرة. العقل!

أهمّ هدية أهدتها الطبيعة للإنسان عقله. به ميّزته عن الجماد وعن النبات وعن الحيوان، به خصّته. فلنستعمله، استعمليه يا زوجتي، يا أم ابني. آمركِ!

– حضّري لهم عشاءً على خاطرهم!

خرجت مني هذه العبارة الآمرة لا أعرف كيف. وانتظرتُ. انتظرت أن تقول لي "على خاطرك"، أن تظهر احترامها لي، أن

تكرّمني بطاعتها لي أمامهم، أن تظهر لهم كم انني غال عليها – على قلبها – فلا تستطيع لذلك أن ترفض لي طلباً. أعطيتها فرصة نادرة لتظهر لي حبها واحترامها، في هذه اللحظات الحرجة – الحرجة إلى أبعد مما يمكن أن يتصوره بشر بكثير. هذه اللحظات التي تحدث – إن حدثت – مرّة في العمر، لأنها لا يمكن أن تحدث أكثر من مرة، لخطورتها. أعطيتها فرصة نادرة لتظهر لي حباً كنت بحاجة إليه، كان ضرورة لي لحظتها، كما الهواء ضرورة لغريق، قلت لها بكلام آخر: انتشليني من الغرق!

وفوق ذلك قدمتُ لها فرصة نادرة، وحجة شديدة الذكاء، حتى تتراجع عن رفضها بأن تقدم لهم وجبة لائقة، بلا أن يبدو عليها أن تتراجع. أمّنت لها فرصة أن تعود عن رفضها منتصرة، وهي من فوق، على اساس انها تجرأت ورفضت أن تأتمر بأمرهم، لكنها على استعداد أن تقوم عن طيب خاطر بالشيء ذاته، بناءً على طلب من زوجها فقط. لكنها تيّبست، سكّر راسها، فلم تفقه شيئاً من هذه الإشارات الخطيرة، التي حاولتُ إبلاغها إياها، بواسطة هذه العبارة التي صدرت مني تلقائياً – صحيح – لكنها، وبعد التفكير العميق والمجرد عن كل هوى، كانت في محلها، كأنها جاءت، من حيث مناسبتها واقع الحال، نتيجة موقف مدروس بدقة فائقة.

انتظرتُ أن تجيبني بشيء من هذا الذي توقعتُه، لكنها ظلت صامتة تشغل يديها ووجدانها بهذه الأواني التي على المجلى.

– ما سمعتِ؟ قلت أيضاً، علّها لم تفهم عليّ من المرة الأولى، فتفهم من المرة الثانية، فتُبادر إلى ما دعوتها إليه، فتسعفني فأنا على

الحضيض، وهي بالتأكيد دارية بذلك، وليست بحاجة إلى أن يوضحه لها أحد.

وأنا على الحضيض.

وهي تدرك انهم يريدون إذلالي أمامها، بل هذا ما تشهده عيناها، ليجبروني على قول ما يعتقدون انني أعرف. فلتبرهن لهم انهم مهما فعلوا، فلن ينجحوا في إذلالي أمامها، بل أني سأبقى على الدوام زوجها، تاج رأسها، أبا ابنها وأبا أولادها الآتين، وان أي قوة في العالم لن تستطيع خفض قيمتي في عينيها، ولو مقدار ذرة واحدة.

يا خشبة خلاصي يا زوجتي هيّا!

- أيش ناقصك؟ انت قم هيّئ لهم ما شئت!

لا!

وكنت أتوقع كل شيء إلا أن تجيبني زوجتي بهذا، وفي حضور هؤلاء بالذات، وهي أبداً، ومنذ أن تعرفت عليها ثم بعد زواجنا، لم تقل لي كلاماً كهذا، وهي تعرف أنني أحبها وأنني احترمها، وان تصرفي معها حضاري على الدوام ولائق، فما الذي جرى، وما الذي دعا.

كنت أتوقع كل شيء إلا أن تجيئني الضربة القاضية من هنا، من هذا الصوب، من الملاذ الأخير الذي لا ملاذ لي بعده إن فقدته، زوجتي، وِسَادَتي التي أُلقي عليها رأسي من تعب أو مرض أو هَمّ، رفيقة دربي في الخير والشر، وفي السراء والضراء، أمّ ابني ووالدته ومرضعته، مستودع أسراري، العارفة بي روحاً وجسداً - تحب زوجتي، حيث

تَطْلع في جسمي حبوب تخفي شعراً صغيراً، أن تأخذ إبرة لتفقأها وتُخرج الشعر منها، على مهل وبحُب جميل، طويل البال، صبور، وأنا أحب ذلك، أحب... وأستسلم لها، أستسلم للإحساس بأصابعها تتنقل على ظهري، وبالإبرة تنغرز بتأنّ أمين.

معقول؟

كنت أتوقع منها كل شيء إلا هذا. هذا الجواب المدمر. فحاولت الوقوف عن الكرسي فوراً، فور سماعي له، لأن التردد في الحالات الدقيقة خطر، لا يعادل خطورته إلا الاستسلام للأمر الواقع. وكانت هذه محاولتي الأولى للوقوف منذ أن أُجلستُ هنا وأُمرت بألا أتحرّك، لكنني ما كدت أنجح في الوقوف حتى وجدت نفسي جالساً من جديد، ثم حاولت، لكن قوةً كانت دائماً تشدني إلى تحت، ثم تبينت أن الجالس قربي هو الذي كان يشدني كلما ارتفعت مؤخرتي عن الكرسي. وفي لحظة ما أثناء محاولاتي المتكررة، قبضت على شوكة كانت موضوعة أمامي، وضربت بها زوجتي فأصابتها فوق عينها، وكادت أن تصيب العين بالذات، فآلمتها، فصرخت من الألم، فنظر إليّ الذي ناداها فقال:

- مانَك قليل! تجرؤ على ضرب زوجتك بالشوكة، غير عابئ بالمكان الذي قد تصيبها فيه. ظننتك آدمياً مسالماً، لكنك عنيف عندما يروق لك العنف. حيّة تحت القشّ.

لا أعرف من أين جاءتني هذه القوة، فاستطعت قذف الشوكة حتى بلغت زوجتي وآلمتها، ويدي شبه مشلولة.

ثم نهض الذي جرها إلى الداخل، وأراد مواساتها فتفلتت منه وابتعدت عنه، وخبأت وجهها بيديها وبكت. لكنه تبعها وراح يلح عليها، محاولاً أبعاد يديها عن وجهها:

- كيف استطعتِ العيش معه طوال هذه المدة، هذا الحيوان؟

فلم تجبه بشيء. لم تقل له مثلاً هذا زوجي وليس حيواناً، وهي التي ما زالت تجيب هذه الأجوبة المتحدية السامة. وهنا تنبهتُ إلى انها لم تكن تدافع عني أبداً بأجوبتها القاسية لهم، بل كانت دائماً تدافع عن نفسها أو في أحلى الحالات عن ابنها، ولكن أبداً عني.

- لو تراها هي كم يحلو العيش معها؟ قلت.

نعم!

نعم أنا الذي قلت "لو تراها هي..!"، وسمعت نفسي أتلفظ بهذه العبارة حرفاً حرفاً. ومع أني لم أخطط لقولها، فقد قصدت بها قصداً أدركتُه فيما بعد، وهو إفهامهم بأنني أراها زوجة سيئة. لكنْ غريب لم يصدر عنها أي رد فعل على كلامي، ولا عن أحد منهم. غريب.

توقعت أن يغريهم قولي هذا بالتدخل لنصرة زوجتي. تصورت وأنا ألفظ هذه العبارة - لكن بلا أن أرغب ذلك - أني ألعب ما يرغبون مني أن ألعب، أي أن أكون فظّاً مع زوجتي ليكونوا هم لائقين. فوجئت بتصرّفهم هذا كأنهم لم يسمعوا شيئاً، أو لم ينتبهوا إلى شيء. تصرّفوا كضيوف لائقين فعلاً، كضيوف أرادوا ألا يعيروا أي انتباه لسوء تفاهم حدث بين زوج وزوجته، وكأنه لم يحدث.

- هل سنأكل الليلة أم لا؟ قال هو ذاته الذي ناداها باسم ابننا،

فتركها الذي كان يريد مواساتها وعاد إلى الطاولة. لكنها ظلت تبكي وتخبئ وجهها بين يديها.

– وبَعدانْ؟ تابع الريّس، تتدبرين أمرك مع زوجك فيما بعد، أما الآن فعلينا عمل يجب أن ننهيه. ثم أضاف: أولاً، يجب أن نأكل فوراً.

"يجب أن نأكل فوراً" قال بصوت صارخ وهو ينهض عن كرسيه، ويتوجه مباشرة إلى زوجتي ويشدها من شعرها ويجرّها حتى يوصلها إليّ ويضرب رأسي برأسها، ويقول:

– سوّوا أموركم سَوا، عندما لا نكون هنا!

فدختُ، "برم راسي"، ودارت بي الدنيا و لم أستعد حالتي السابقة إلا بَعدانْ، بعد فترة، بعدما رأيت زوجتي على المجلى... نعم على المجلى.

حينذاك، وحينذاك فقط، توجهت حضرتها إلى المجلى، لتحضّر لهم العشاء اللائق.

حينذاك، وحينذاك فقط، حضرتها فهمت ما عليها عمله. غضبي عليها! ذبحتني، قضت عليّ نهائياً.

لا! ليس منك يا زوجتي العزيزة، يا شريكة حياتي، يا ملازمتي في السراء والضراء، ليس منك تأتيني الضربة القاضية. فلماذا لم تفهمي عليّ، لماذا لم تفكّي حروف رسائلي إليك، وأنا لم آمركِ أمراً بل خاطبتك مخاطبة كريمة، مخاطبة الكريم للكريم. لماذا افسحت لهم مجالاً للتدخل بيننا.

ثم أنها منذ دخولي لم تحاول أن تقترب مني لحظة، لترى ما بي. أما إذا كانت تحتج بأنها كانت ستُمنع فيما لو حاولت، فلتحاول على الأقل، فلن ألومها على فشل محاولتها. ثم انني لو سلّمت جدلاً بأن هذه الحجة كانت فعلاً سبباً مانعاً، فلماذا لم تنظر إلى جروحي البادية على كل أنحاء جسمي، ولو مرة واحدة. ونظرة عابرة كانت تكفيني وترضي حاجتي للمواساة. لكنها كانت لا توجه نظرها إليّ وكأنني أنا الطاعون.

– عدو الرجل زوجته! قلت، فسمعها الجميع. بل قلتها ليسمعها الجميع.

– اتركها تحضّر الأكل!

غريب شيء يدوّخ! فكيف انهم لا يبدون أي اهتمام بخلافاتنا وبمشاجراتنا، وهم الذين يستفيدون من كل نقطة ضعف فينا ليبلغوا غايتهم. هذا بالفعل شيء مدهش. فكيف...

فسكتُّ.

اسباغتي. هذه أكلة لائقة وسريعة وهينة، وأعجبتهم. مع سلطة وبيض وسردين. عشاء فاخر. وجلسنا نأكل.

كانت هي قربه، هذا الذي يبدو عليه أنه الريّس. وكانت قربه بملء إرادتها، ولا يغيّر شيئاً في حكمي هذا كونها كانت مجبرة في الأساس على الجلوس حده، فهي الآن حيث هي بملء إرادتها، فلا تتلوى مثلاً كأنها قرب أفعى أو كأن في قلبها نارَ القلق أو الغضب أو الكره أو شيئاً من هذه المشاعر. ثم:

ملأت صحنه أولاً، ولم يكن شيء يجبرها على ذلك، وشكَرها بتهذيب غير مفتعل، وكادت أن ترد له الشكر. وجلست حدّه ولم يكن شيء يجبرها على ذلك، اختارت أن تجلس إلى جانبه، وجلست بلا خجل أو حياء. ورأيتُه بما كان سليماً من عيني، يمد يده ويضعها على فخذها، فلا تحرك ساكناً. فلا يضطرب جسدها خوفاً أو قرفاً، لم "تنقز". ولو لحفظ ماء الوجه.

ثم ابتسمتْ، وكادت تضحك حين سأل للنكتة:

– ما قمّة الكسل؟

وتطلّع في وجوه الحاضرين جميعاً، وخاصة في وجهها الذي كان بادياً عليه الانشغال بالبحث عن الجواب، فسعد حين لم يجب أحد فقال: "– كعيتو؟" ثم قال وهو يتطلع في وجهها: عجزتِ أنت أيضاً؟ فكادت أن تقول نعم. فغمره الفرح لمّا تبين أن أحداً منا (أنا وزوجتي على الأقل) لا يعرف الجواب، ثم قال: أنْ يتزوج الانسان امرأة حبلى! فكادت تبتسم. نعم. أما أنا فضحكت، نعم ضحكت صراحة، لأنه كان عليّ أن أضحك كذلك، فلا ننسَ انني المعني أساساً بما يجري هنا، ثم أن المكان بيتي وأنا المسؤول عن كل ما يجري فيه، أنا رب البيت، وكان عليّ من ضمن مسؤوليتي كرب بيت أن أضحك لنكتة قالها أحد الضيوف، خاصة انها نكتة لذيذة لولا الظرف الذي خُبّرت فيه، ولولا انه أراد بها أن "يتهَضْمَن" أمام زوجتي.

وليت الأمر انتهى هنا عند هذه النكتة! لكن نكاتاً هذا موضوعها، وفي ظروف كهذه، لا بد أن تكون توطئة لخطوات

أكثر إلزاماً، وهذا ما لم يفاجئني أبداً، فما أن انتهت مرحلة الضحك حتى بادر الريّس إلى سؤالها عمّا إذا كانت حاملاً: قال: أنتِ حامل؟ (كان في الحقيقة مهذباً في اختيار الكلمة. استعمل كلمة "حامل" وهي كلمة لائقة، و لم يقل "حبلى" وهي كلمة غير لائقة كثيراً في عاميتنا). فترددت زوجتي قبل أن تجيب، لكنها أجابت. نعم أجابت. قالت له:

– أعتقد!

يا الله، يا الله! لا، لا، لا... هذا جواب خطير خطير خطير، أيمكن ألا تكون أدركت خطورته؟ أيمكن ألا تكون أدركت أهمية الباب الذي فتحته له ولهم ليدخلوا منه إلى أكثر أشيائنا حميمية؟

– تعتقدين؟ يعني لست أكيدة، يعني انكِ في مرحلة المحاولة فقط!

بالضبط! أصاب الجوهر. نحن كنا في مرحلة المحاولة و لم نكن واثقين بعد من انها حبلت. كنا في تلك الفترة نحاول. نعم نحاول. وكنا نعتقد أن محاولاتنا ستنجح، لأن تجربتنا السابقة في الحبل الأول، كانت سهلة، و لم تعترضنا فيها أي مشكلة.

لم تجب زوجتي عن سؤال الريّس الأخير (خجلاً؟ ممن؟ مني؟) كانت تثبت عينيها بشيء ما أمامها على الطاولة. وكانت يده تعود دائماً لتحط على فخذها.

– ألا يزعجكِ أن زوجك ميّال إلى الكسل ومضيعة الوقت؟

ما زال الريّس يتابع زحفه لاستكشاف العالم الذي فتحت بابه

زوجتي. فأجابت بابتسامة خفيفة لكن عميقة:

- لا!

أحسنتِ يا زوجتي لكن تابعي، قولي لهم سريعاً لماذا لا. لكنهم لم يتركوها تتابع كلامها بل انفجروا بالضحك واطالوا، وكانت هي تنتظر أن يتوقفوا لتوضح لهم ما قصدته بالـ"لا". ولما هدؤوا بقيت هي متوقفة عن الكلام، ثم ظلت صامتة وكأنها اكتفت بما قالت بهذه الـ"لا"، ولكن كيف هذا، كيف تكتفي بهذه الكلمة وحدها بلا توضيح، وهي تدري انهم سيفهمونها كما يشتهون وليس كما أرادت، سيفهمون منها أن زوجتي تراني كسولاً لكنها ليست منزعجة من كسلي لأنها تأخذ من هذا الكسل حجة لتتدبر أمرها مع آخر أو مع آخرين، لذلك فمن حقهم أن يسعوا ليكونوا من هؤلاء الآخرين. فتابعي كلامك إذن يا زوجتي العزيزة قولي لهم إنك عنيت انه لا يزعجك كسلي لأني لست كسولاً، تابعي إذن قولك، قولي: لا ليس كسولاً! أوقفي الضرر. أوقفي اندفاعهم نحو منابع أسرارنا. فقد يدمر انسلالهم بيننا كل ما يجمعنا، أمْ... أم انك عملت حساباتك وطلعت بنتيجة أن الممالأة مفيدة للخروج من هذا المأزق، فقررت أن تمالئي على حساب زوجك. لكن يا زوجتي إذا كان هذا الحساب ورد في ذهنك واقتنعت به فأنت، وأقولها لك بقوة، مخطئة. وفي حالة واحدة فقط أنت لست مخطئة، وهي أن تكون هذه رغبتك، أن توحي لهم أن زوجك كسول، وان يكون في هذا الايحاء دعوة: فتعالوا إليّ أيها الفحول!

- هل تريدين مساعدة؟ قال الريّس، وكان والحقيقة تقال، شاباً جميلاً، ويبدو عليه انه ابن ناس.

لقد وصلت الرسالة!

وصلت الرسالة واضحة جلية لا مجال للبس فيها أو لتأويل. لقد فهم الريّس ما قصدت زوجتي، وكان سؤاله – عرضه للمساعدة – على أساس هذا الفهم. فسكتتْ فلم تجب. وظلت ساكتة رغم تكراره السؤال. فماذا يعني هذا السكوت؟ فهل هو سكوت موافقة أم سكوت رفض!؟ ولماذا لا تُجِيبْه بصراحة وحزم، وهي القادرة على الصراحة والحزم كما برهنت دائماً؟

هنا قلت في نفسي، إنها الآن اللحظة المناسبة للطلب منهم السماح لي بالنهوض إلى المجلى، فمزاجهم يبدو رائقاً في هذه اللحظة، وهم يرغبون ولا شك بإعطاء البرهان لزوجتي عن طيب معدنهم وعن حسن نواياهم، ثم انهم يرون بعيونهم كيف أنني عاجز عن الأكل، وكيف أن حاجتي إلى الماء ضرورية. لقد بات واضحاً انهم لا يريدون لي الأذى حتى الموت، فلو شاؤوا ذلك فعلوا، فمنذ هذا الصباح وأنا معهم بين أيديهم، فلا شيء غير رغبتهم وتقديرهم يحدد ما عليَّ فعله. لذلك سيسمحون لي بالنهوض لحظةً للذهاب إلى المجلى، للشرب أو لغرض آخر من هذا النوع.

السكين الكبيرة على المجلى، أرى شفرتها الحادة تلمع من هنا حيث أنا على الطاولة، وفيّ على ما أشعر بقيةٌ من قوة كافية للقيام بهذا الشيء الذي لم يعد منه بد، بسرعة وفاعلية. خطفاً.

– شو؟

الله! ليتني استأذنت الذهاب إلى المجلى قبل أن يباشر جلسةَ العمل،

ليته أمهلني دقيقة واحدة فقط لكنْ عليّ ألا أقطع الأمل، عليّ أن أُحاول، رغم علمي بصعوبة أن يقبل طلباً كهذا أثناء العمل (– شيء غير معقول طباع هذا الرجل، فكأن وقت العمل عنده وقت مقدس، وقت صلاة صرف، لا يتنفس فيه إذا لم يكن التنفس مفيداً، ولا يسمح لأحد بأن يتنفس إلا خدمة للعمل، وفوق ذلك وحتى تبلغ صفاته الكمال فإنه لا يخطئ)، فرغم علمي إذن بصعوبة قبوله طلباً من هذا النوع، قلت أحاول فلن أخسر شيئاً، وشجعني على ذلك ما ذكرته من ظروف مؤاتية، وما كان بادياً عليهم جميعاً، وخاصة هو، من مزاج رائق.

ثم توجه بالكلام إلى زوجتي، وقال لها بتهذيب لافت لا تصنّع فيه ولا سخرية:

– من فضلك، فينا نشرب فنجان قهوة؟

فالليل طويل، والعمل كثير، والمساء ما يزال في أوّله، والقهوة هذا محلها الآن وهذا وقتها. لكنني، ورغم النية الحسنة التي نجحتُ في التمتع بها حتى الآن، بدأت أحس منذ فترة بأن الإناء امتلأ وانه بدأ يفيض.

(– عفواً!)

وراح يَسخن فيّ شعور غريب غامض قوي، ينبعث من أماكن بعيدة بعيدة، وقديمة قديمة.

والحقيقة اني منذ فترة بدأت أحس بهذا الشعور تزداد سخونته، منذ عودتي إلى البيت ورؤية ابني يندفع راكضاً نحوي... فكيف عرفوا

بيتي، كيف وصلوا إليه بلا تردد، بلا أن يسألوا أحداً! توقفوا قرب رصيف البناية بالذات، وصعدوا إلى الطابق ذاته، وانعطفوا نحو الشقة ذاتها، وأنا بينهم لا يستعينون بي، وحين بلغنا الباب سلّموني المفتاح الصح، من بين كمشة المفاتيح التي كنت أحملها والتي لا أدري كيف فقدتُها فوقعَتْ في أيديهم، لكنني قبل أن أُدخله في الباب، مددت يدي نحو الجرس لأرنَّه فأنبِّه زوجتي إلى وجود غرباء معي، فمنعوني، فأبعدوا يدي عن الجرس وقرّبوها إلى قفل الباب! لم تستقبلني زوجتي عند الباب فهل كانت على علم مسبق بقدومي معهم؟ هل أخطرت بذلك؟

- أنا كمان بدّي قهوة!

جاء هذا الصوت من الداخل من البيت بالذات، وكان له وقع الطلقة المفاجئة، وهو صوت أعرفه، انه رجل المكتب الرابع، فهل كان في البيت من زمان أم انه مازال آتياً. هل سبقنا إلى هنا، هل كان مع زوجتي في الغرفة (غرفة النوم أو غرفة الجلوس؟) يمنعها عن استقبالي ليزيد الضغط عليَّ علّي أطقّ من القهر وأنفجر فأبوح؟ هل كانوا يُدخلونها لعنده حين كانوا يجرّونها بشعرها... هل هو...

- على السرير؟

سأله الريّس إن كان يريد شرب قهوته وهو على التخت. فماذا يفعل هناك على التخت وما الحاجة، وأي ضغط إضافي عليّ يشكّل هذا.

وانتظرتُ أن يجيء الجواب، كنت أود فعلاً أن أعرف الجواب،

أقصد كنت أريد أن أعرف أين يريد شرب قهوته، ولمّا تأخر وددت أن أسأل فعدلت، لئلا أسمع جواباً لا أقدر على حمل وقعه، فقد بدأت قدرتي على التحمّل تضعف، بل أكثر من ذلك بكثير، وأخطر: يستبد بي حدس، يستبد بي شعور، بأني أقترب من لحظة البوح!

- أردت أن تقول شيئاً؟ سألني الريّس.

غريب كأنه رآني أَهُمُّ بالكلام ثم أمتنع. لا بد أن تكون رغبتي في الكلام انعكست على وجهي لشدة ما كانت قوية.

- كيف تحبّونها؟ سألتْ زوجتي وهي تنهض عن كرسيها قربه.

- بَدِّك تعذرينا وتطوّلي بالك علينا الليلة. لكن كل دقيقة زيادة يتحمل مسؤوليتها هو. وأشار نحوي باصبعه (الريّس).

- أهلاً وسهلاً فيكم، خلّصوا شغلكم ع مهلكم. هيدا واجبكم عم تعملوه (زوجتي).

معقول! هل فهِمَت عليّ كما أريدها أن تفهم تماماً، وهل بدأت تعمل على هذا الأساس. هل قدّرت انها بهذا الأسلوب الهادئ اللطيف، تجبرهم على أن يكونوا هادئين ولطفاء، هل اقتنعت أخيراً بأن حصولنا على قناعتهم ببراءتي يستدعي أن نفتح لهم كل شيء: قلوبنا وعقولنا ومخابئ منزلنا. عظيم! هذا تطور إيجابي جداً، منعش. هذا برهان آخر على أن المرأة بحدسها وغريزتها تستطيع أن تعي كل شيء، فهي ليست بحاجة إلى مجلدات من الكلام لتستوعب. المرأة كائن ذكي بالسليقة. لكن موقفها - اقصد زوجتي - ابتداء من الآن، سيكون صعباً ودقيقاً، لأن الفرق بين أن تكون لطيفة وبين أن تكون

سهلة (سهلة المنال) ليس أكيداً عند هؤلاء الزوار، إذ قد يؤخذ اللطف على انه سهولة، فنَعْلق عندذاك علقة نحن بغنى عنها. لم أعد أستطيع. وبالمناسبة...

وبالمناسبة من أخبرها بما جرى؟ كيف عرفتْ اني الآن يُحقق معي، واني متّهم بتمزيق الصورة، أو بإخفاء معلومات عن الذي مزّق الصورة، أو بأني جزء من شيء أو على علاقة بشيء هم يعرفونه ونحن نجهله. من أخبرها بكل هذه الأشياء؟

على كل، المشكلة الآن ليست هنا، المشكلة الآن تبقى في الثقة، في ثقتهم بي. انها مفتاح كل شيء. لذلك إذا نجحت زوجتي في مساعدتي على كسب ثقتهم بي نكون وصلنا إلى الحل. إلى شاطئ الأمان كما يقال. وهذا حلمنا وهدفنا ومبتغانا. لذلك يجب أن تتصرف زوجتي بذكاء خارق، يجب أن تستعمل الآن كل ما تملك من قدرات حتى نبلغ ما نرجو. وسيكون هذا ليس في صالحنا وحسب، بل في صالحهم أيضاً فهم بشر مثلنا مهما كانوا أشراراً، أو بالأحرى مهما بدا عليهم أنهم أشرار، لأنهم مكلّفون بكل بساطة، مكلّفون ببلوغ هدف، وعليهم أن يبلغوه لينالوا رضا رؤسائهم، بل ليرضوا ضمائرهم، وإذا كانوا يُبدون هذه الغلاظة في تصرفهم، فلأنهم بالتأكيد يعتقدون أن تمنّعي عن الكلام هو سبب عدم نجاحهم حتى الآن في بلوغ ما يسعون إليه. فلذلك على زوجتي أن تساعدني الآن لننجو، أن تتصرف بذكاء بذكاء وبحكمة أيضاً، وان تعلم أن أي خطأ بعد الآن غير مسموح به وغير مبرر، فالإنسان يجب أن يتعلم بسرعة، خاصة في مناسبة كهذه لا تتحمل تكرار الخطأ، بل حيث

الخطأ يقتل. والحكمة تقتضي أن تكون على أقصى درجات الانتباه حتى لا تعطيهم أي حجة تسهّل عليهم تحقيق رغباتهم في الخلط بين اللطف والسهولة، وهي على كل حال لا خوف عليها في هذا المجال، انها ابنة أهلها، وابنة عائلة حصّنتها مئاتُ السنين من الاستقامة والإيمان الصحيح والتقوى، بل أكثر من مئات السنين، فما من أحد سمع يوماً أن واحدة من بنات هذه العائلة أو من نسائها شذّت - أعوذ بالله! أو انها عصت زوجها في أمر. وما من أحد إلا نصحني بها قبل أن أتزوجها وشجعني على الزواج منها. أبداً ما من أحد. وما من يوم خرجتُ فيه من بيتي أو عدت إليه وبي شك يتعلق بها، أو ظِل شك أو وسواس أو ما شابه، فأنا دائماً أخرج مرتاحاً طمين البال، وأعود مرتاحاً طمين البال، وما من سبب الآن يدعو لانشغال البال، إنما الآن نحن بحاجة لمزيد من الحذر، وهذا كل شيء، مزيد من الحذر، ومزيد من الوضوح أيضاً، الوضوح الوضوح، فليس مسموحاً لنا أن نقوم بأي تصرف يمكن تفسيره بشكل آخر، أي على غير معناه. لكنني مرتاح أيضاً من هذه الناحية ولا ذرة قلق عندي.

لم يسمِّ الريّس أحداً عندما قال فجأة بلا مقدمات:

- وأخيراً؟

وكنت أسعى وقت ذلك في ذهني إلى السكين. فاجأني الريّس لحظتها، فاضطربت وخفت أن يكون لاحظ هذا الاضطراب.

- وأخيراً، وإلى متى سنبقى هكذا، نَستجدي منك الخبر الصحيح؟

فتطلعت في اتجاهه فوراً، بلا أن أنظر إليه في عينيه مباشرة، لأقول له بلا كلام إني جاهز ورهن إشارة منه.

– شو؟ قال أيضاً، أضاف.

فبقي متطلعاً صوبه دون النظر إليه إلى عينيه مباشرة، إنما رفعت نظري قليلاً نحو شيء ما فيه ثم أخفضته، لأقول له بذلك هيّا.

– بتعرف، أنا ملتقي بمناييك كتير، لكن مش قدّك! أضاف هو ذاته بعد لحظات من التبحّر بي.

لا يمكن اطلاقاً ألا تسمع زوجتي هذا الكلام، فهو يجري هنا في المطبخ، لكنها ظلّت منكبة على ركوة القهوة، كأنّ ما بلغ أذنيها كان كلاماً عادياً لا يلفت نظراً. فهل تجيد زوجتي اللعب إلى هذا الحد؟

فأردت أن ابتسم حين قال ذلك. أردت أن ابتسم ابتسامة القادر، لكن القادر الحكيم الطويل البال، الذي لا يمكن أن يؤثر فيه كلام هؤلاء القاطنين على قشرة الأرض، الساعين عليها. لكنني لما رأيتها لم تتلفت، قلت أوفّر رد فعلهم على ابتسامتي لمرة أخرى، تكون زوجتي حاضرة فيها مئة بالمئة. فلم ابتسم، وقلت: فلأبقَ منصرفاً الآن بكليّتي إلى الأهم، والأهم هو هذا: ماذا أقول أيضاً وماذا يرضيهم أن أقول ويكون حقيقة.

وان هذا أمر يحيّرني فماذا أستطيع أن أقول، ماذا أقول لهم بعد، فقد قلت لهم كل ما أعرف، وأجبتهم عن كل سؤال، وأفرغت لهم ذاكرتي فماذا أستطيع بعد. أكيد هناك أشياء تذكّرتها وأنا أروي لهم كل ما في ذاكرتي، لكنني لم أخبرهم بها، وذلك عن قصد، لأني لا

أريد أن أخبرهم بـ... كـ... مثلاً... خيانتي لزوجتي مرّة. فهذا أمر لا يعنيهم أبداً، أقصد انه لا يفيدهم بشيء، فلذلك اكتمه عنهم وأنا مرتاح الضمير. وان كتماني له لا يشكل أبداً خطراً عليّ لأنهم لا يعرفون شيئاً عنه ولا يمكن أن يعرفوا شيئاً... إلا إذا كانوا آلهة يعلمون بالغيب! ولا أظن ذلك.

– ألا تظنّ اننا نعرف كل شيء، وخاصة عنك؟

هل يمكن أن يكونوا على علم بشيء جرى لم يدرِ به شعاع شمس؟ فهل يمكن أن يكونوا يراقبون الناس جميعاً، طوال اليوم وعلى مدار الساعة؟ كان يوم عطلة وكنا عند أهل زوجتي للغداء، ففطنّا إلى اننا نسينا علبة حليب الصبي ابننا، وكان عمره أشهراً، ولم يكن غيري ليذهب ويجلبها من البيت، فذهبت. وبينما كنت أفتش عنها في المطبخ، رنّ الجرس فذهبت أفتح وأنا أتساءل من يكون، وأفكر أيضاً بهذه الصدفة – إذ لم يمضِ بعد على وجودي هنا أكثر من لحظات، ولن أبقى إلا لحظات – وفتحت الباب لأقع على مستعطية شحّادة تقول لي: من مال الله يا أستاذ... الله يخلّيك بصحتك... يخلّيلك أولادك... فقلت لها عندي ولد واحد فقط، ثم أضفت: ما معي مصاري، ثم بادرت بإغلاق الباب في وجهها، لأنها لا يمكن أن تنصرف من تلقاء نفسها، فمنعَت الباب بيدها من الانغلاق، فدُهشتُ، فهذا أمر لا تقدم عليه شحّادة أبداً، ثم بادرتني بالقول: اعمل لك ما تريد، لكن أعطيني الله يعطيك لأني امرأة محتاجة! فقلت لها مثل ماذا؟ فقالت وهي تتقدم على مهل نحوي نحو الداخل، قالت: ما تريد! ثم صارت صراحة في الداخل وأغلقت الباب وهي تردد ما تريد. سحرتني هذه المرأة، لا

أدري ماذا رشّت عليّ لتسلب مني قراري وإرادتي، ولما رأتني واقفاً مندهشاً مدّت يدها إلى بنطلوني وتابعت حركتها إلى أن انصعت لها كما تريد، ثم أعطيتها ما أرادت واختفت. فهل هم الذين يرسلون هؤلاء النسوة ليورّطوا الناس ويصبحوا رهائن عندهم، (هل يعلّمونهن التصوير؟)، معقول؟ ففي هذه الحالة عليّ الإخبار لئلا أُتّهم بإخفاء معلومات، أو بانتقاء المعلومات التي أعطيهم إياها.

– على أي أساس تنتقيها يا..! ألا تعرف اننا نملك ما لا يمكن أن تتصور. أتريد أن نريك صوراً؟

ثم تنهّد الريّس بعمق وسأل على سبيل العارف بكل شيء:

– أخبر زوجتك عن خيانتك لها!

ثم قال بعد أن توقف لحظة:

– أيها الزوج الصالح.

هنا لا أخفي أبداً انني اضطربت، لكنني كنت مدركاً تماماً أهمية أن أبقى متماسكاً، وقلت في نفسي عليّ أن أكون أقوى منهم، فهم يريدون الإيقاع بي فقط بادعائهم انهم يملكون كل شيء، لكنهم في الحقيقة لا يملكون كلّ شيء، بل لا يوجد في الكون قوة تملك كل شيء. ثم أن حساباتهم كانت جد بسيطة، فاحتمال أن أخون زوجتي ولو مرّة واحدة وارد جداً على أساس أن نسبة من الرجال لا بأس بها تفعل ذلك. فقلت:

– أنا لا أخون زوجتي.

قلتها بوضوح وبهدوء وبثقة، لكن بلا استفزاز.

- نعتذر منك يا أم... (لفظ هنا اسم ابني)، فزوجك يضطرنا إلى استعمال كلام غير لائق. ثم استدرك وقال:

- غير لائق بكِ أن تسمعيه، وغير لائق بكِ أن يقال في حضوركِ.

ثم تابع:

- بس خبرينا كيف ست مثلك قادرة تعيش مع هيك شخص؟

- لكل نصيبه قالت زوجتي.

الله! لقد ضعضعت دماغي أجوبة زوجتي هذا اليوم. فكيف يمكن أن تعلّق بكلام من هذا النوع، يحوي هذا القدر من الغموض، ويحتمل الكثير من التأويل، فقد يُفهم منه بسهولة انني لست أهلاً بها بالفعل، وانهم محقّون في حكمهم عليّ، وانهم عرفوني بسرعة على حقيقتي.

بل هذا ما سيفهمون منه بالتأكيد، بل هذا ما يُفهم منه بكل بساطة، فما معنى أن تقول لإمرأة: زوجك سيّئ! فتجيبك: هذا نصيبي! كان عليها هنا أن تبقى صامتة، وان لا تعلق بشيء، خاصة انها لم تكن مضطرة إلى الاجابة أو التعليق أو الرد، وخاصة انهم لم يأخذوا شيئاً قالته هي بالذات إلا على طريقتهم وعلى ما يرغبون، فلن يفهموا كلامها هذا بأنه، مثلاً، اعتماد منطقهم للهزء منه. أنا لست متأكداً من أن زوجتي تدرك فعلاً أهمية دورها الآن، وأثرَ كل كلمة تقولها على مجرى الأحداث، لأنها بكل بساطة بريئة وخالية الذهن مما يجري، أقصد مما يجري على الساحة العامة أيضاً في البلد كله، وما يجري على

الساحة العامة شديد الخطورة، ولا بد أن يكون له انعكاسات على كلّ الصعد، (– يجب أن تُجبر النساء على متابعة السياسة كالرجال)، فزوجتي، بكل بساطة، تأخذ الأمور الجارية الآن معنا على أساس أخلاقي شخصي بحت، على أساس أن عيباً يُقترف ضدنا، لأن ناساً فرضوا علينا أن نستضيفهم في بيتنا رغم إرادتنا، في لحظة اختاروها هم بأنفسهم وبشكل غير لائق. وزوجتي لا يمكن أن تنسى أبدا انها بنت ناس أوَادِم أباً عن جد، وان أحداً في الكون لا يستطيع أن ينمِّر عليها بشيء، أو أن يشير إلى علة في تصرفها، بل أن الذي يجرؤ على إهانتها عن حق لم يخلق بعد. وهي تعتقد أن اتزان الكوكب سيصيبه خلل إن تجرّأ أحد على مسّ كرامتها – وكرامة منزلها بالطبع من كرامتها، وكذلك كرامة زوجها، لا فرق أبداً. (– سأُخبر أبي! تقول عندما تعترضها صعوبة أو يزعجها أحد). زوجتي لم تدعكها الحياة بعدُ بما فيه الكفاية، لذلك فهي لا تحسن التعامل مع هذه الأمور الدقيقة بالحكمة اللازمة وطول البال. فالدنيا للأسف الشديد ليست كما تعتقد، الدنيا لا تُقص بالسكين – كما تقول الحكمة – والرياح تجري على هواها لا على ما تشتهي السفن.

ويرنّ الجرس في هذه الأثناء، جرس الباب، فأتمنّى أن يكون أهلها، وهذه المرة الثانية التي يقرع فيها الجرس، المرة الأولى لم يكن الطارق ملحاحاً، أمّا الآن فهو يلح. فهل حاولت الاتصال بأهلها بطريقة ما وأعلمتهم بما نحن فيه!؟ هل استطاعت أن تعلم أحداً من معارفنا أو من الأقارب؟

نادراً ما يأتي أهلها في مثل هذا الوقت، لكنهم يأتون أحياناً ليروا

حفيدهم الذي يحبونه، قبل أن ينام. فهل اتصلوا بالهاتف فشغل بالهم أن أحداً لا يرد، فجاؤوا يتطمأنون. يا ريت.

أمّا هم، ضيوفنا، فلم يتحرّكوا، ظلوا كأنهم لا يسمعون شيئاً. ثم بعد عدة محاولات أخرى توقف الرنين. لم يكن أهلها إذن، وإلا كانوا نادوا، وكانوا خبطوا على الباب.

تطلعت إليها وهي على المجلى، بينما كان الجرس يرنّ، كانت يقظة جداً، مُؤَرْنبة الأذنين، لكنها لم تلتفت قط، و لم تعطِ انطباعاً بأنها همّت أو رغبت أو تأثرت. غريب، هل تمسك خيطان اللعبة إلى هذا الحد، وبهذا الذكاء الخارق. (ستقوّي زواجنا هذه التجربة، وستشد واحدنا إلى الآخر على مدى العمر. سنفوز لا شك في هذا الامتحان، وسيصبح ذكريات فقط، ذكريات نستدعيها عند الصعوبات التي قد تعترضنا لنستقوي عليها).

- وبَعْدان؟ قال.

- تفضلوا هذه قهوتكم.

تدخلتْ في الوقت المناسب فخلصتني من ورطة التعبير بلا كلام، لأن كل مرة كان يسألني فيها شيئاً من هذه الأسئلة كنت احتار فيما أقول، فأتململ في مكاني وأتطلع حواليه، وأحياناً يبلغ نظري جسمه - دون عينيه - لأوحي إليه بأنني جاهز لكل سؤال، وانني متعاون إلى أقصى الحدود، وانه ما عليه إلا المبادرة فقط. أما إذا كان ينتظر مني أن أبوح بما يريد من تلقاء نفسي فبماذا أبوح؟ بماذا؟

اعترف أنني في لحظة من اللحظات أخطأت، فقد أوحيتُ له بأنني

ربما استطعت البوح في اللحظة المناسبة، أو في المكان المناسب، وذلك حين قلت له أنني أحياناً أكون منصرفاً إلى أمر آخر، أو أكون في مكان ما، فأتذكر فجأة أمراً نسيته، شيئاً أو حدثاً أو اسماً مثلاً، فهل فهم من هذا الكلام انني أخبئ له مفاجأة سعيدة، في الوقت المناسب، وهل لهذا السبب رافقني وأصحابه إلى بيتي! فماذا إذن تراني قلت له وما عدت أذكره، حتى فهم أن بيتي هو المكان المناسب، وإن المساء هو الوقت المقصود؟ فهل كانت هذه أيضاً، مرة أخرى، أخطو فيها خطوة تؤدي بي إلى حيث لا أشاء. الله! فمتى أخطو فيقودني خطوي إلى حيث أسعى! ومتى تتطور مشاعري دائماً في الاتجاه الذي أرغب. وهل فعلاً هو كلامي هذا الذي قادهم إلى بيتي، إلى قلب حياتي الخاصة وفي أحشائها، وأنا قصدت به حقيقةً تتكرر كل يوم، وهو انك تحاول تذكر اسم فلا تفلح، وتحاول بقوة فلا تفلح، ثم تنسى، وبعد فترة تطول أو تقصر، يجيئك هذا الاسم فجأة وأنت منصرف كليّاً إلى أمور أخرى، وفي مكان ما ربّك يعرف أين. هذا ما أردت قوله لهم فقط وهو صحيح. فكيف يمكن فهمه بشكل آخر، وكيف يمكن حمله على غير معناه الذي أردته له وخصصته به. تَارِي الحكي يشبه رنين الجرس، كلٌّ يسمعه كما يرغب، وكلٌّ يقوِّله ما يشاء.

فهل يمكن أن أكون – أنا – الذي قدتهم إلى بيتي. هل قالوا هذا أو شيئاً من هذا إلى زوجتي، هل أوحوا إليها به، هل وشوشوها بشيء، وماذا ألقوا في أذنها.

أَلِهذا أُحسّ من وقت إلى آخر انها تكاد تنفجر غضباً عليّ؟ ألهذا ترفضَ النظر إليّ مباشرة. الهذا لم تسكب لي صحني إلا أخيراً. بعد

أن سكبت للجميع. سكبت للجميع ما عداي. أم انها فعلت ذلك لأنها علمت انني لا أستطيع الأكل لأن في فمي جروحاً، ولأن أسناني الأمامية مكسورة، لكنها لم تقترب مني أبداً لتنظر إليّ، لترى، (هل أخبروها؟ هم؟) ألا تعلم زوجتي أن الإنسان في مثل هذه الحالة – حالتي – يجب أن يُدفع إلى الأكل دفعاً وبالحيلة، حتى يقوى على نفسه، وحتى يستطيع أن يجابه الوضع الذي هو فيه. وأي وضع هذا الذي أنا فيه، وكم هو بحاجة إلى قوّة وعزم وإرادة ورغبة – نعم رغبة في الحياة! للانتصار عليه والخروج منه بأقل الأضرار.

– هذا سكّر لمن يريد.

– لا أشربها الا وَسَطْ ومغلية مع السكر! جاء هذا الصوت من الداخل، من غرفة النوم، كأن أحداً يعاتب زوجةً له. كأن إصبعاً من الديناميت انفجر في رأسي.

لا! لا! لكل شيء حدود. بل لكل أحد حدود، مهما علا شأنه ومهما تمكّن.

أكيد انه الآن ممدد على التخت خالعاً حذاءه. (كان الطقس ربيعياً معتدلاً، لا برداً ولا شَوْباً). فهل يريد أن تحمله إليه زوجتي. لا! لا! هذا تخطٍّ للحدود غير مقبول. وبعد أن سكبت زوجتي قهوة لجميع الموجودين على الطاولة، بما فيهم أنا، قال الريّس:

– بعد واحد!

فقالت زوجتي بأن القهوة مرة بلا سكر، (تقصد أن الآخر لا يشربها كذلك).

- لا يمكن أن نشرب وحدنا قال الريّس (يقصد أن يذكّر زوجتي بالذي على السرير):

- ولو! أنتِ ستّ الذوق!

فقامت زوجتي لتضع الركوة على النار من جديد، وتغلي ما بقي فيها مع مقدار ملعقة من السكر، لتلبي بذلك رغبة الآخر في الداخل.

- إشربْ! قال لي جاري.

فقلت له انني أشرب القهوة مع السكر (لحسن حظي)، فقال لا يمكن أن تشربها بلا سكر. وكان صعباً عليّ أن أسكب السكر بهذه الملعقة الصغيرة وان أحركه ليذوب، بلا أن أوقع الفنجان. وبالفعل كاد الفنجان يقع عدة مرّات، كنت أثناءها أتمنى أن تأتي زوجتي لتنجدني، لكنها لم تأت رغم انها سمعت جاري يهددني ويتوعدني إن دلقت القهوة على الطاولة، أو إن دلقتها عليه، (خاصة عليه! "- أُحمِّمك بالركوة!") وكان بي حقيقةً رغبةٌ قوية في فنجان قهوة، وأنا أحب القهوة خاصة في المساء بعد العشاء، إذ لا يستوي نومي، خلافاً لكثير من الناس، بدونها، وبعد أن استطعت أخيراً تحلية فنجاني بأقل ضرر، رفعته إلى شفتي لكنني لم أستطع أن أرشف منه شيئاً، لأن شفتيَّ كانتا ورمتين، فأعدته إلى الطاولة أمامي بلا أن أقول شيئاً. ولما رآني جاري أفعل ذلك أحسست انه استُفزّ، وان عينيه كبرتا واستدارتا، ولم يدم هكذا طويلاً بل فجأة انهضني، وقال لي إخلع بنطلونك، أمرني أمراً لا ينتظر، وضربني على رأسي، لكنني لم أخلع بنطلوني، وقررت ألا أخلعه، وقررت أيضاً أن يكون هذا خط دفاع لا أتراجع عنه أبداً.

لم أخلعه، ولن أخلعه، فلكل شيء حدود لا تحلو الحياة أبداً بعدها. يستطيعون أن ينالوا مني ما يشاؤون، وأنا مستعد للتعاون معهم إلى أقصى الحدود، لكن هذا لن يتكرر هنا، وأنا على استعداد في هذه اللحظة أن أنفجر، كقنبلة محشوّة بكميات ضخمة من المواد الشديدة الانفجار، وكقنبلة من هذه القنابل الهائلة التي كانت تنفجر في الشوارع وقت الازدحام في بيروت، وتحصد البشر والأمكنة، نعم في هذه اللحظة. كنت قبلاً أقول أن هذه الحادثة ستولّي عاجلاً أم آجلاً وان الموت بسببها لا يجوز، وانها لا تستحق، أما الآن فبَلى! لقد بلغ السّيلُ الزُّبىّ ثم اقتربت زوجتي في هذه الأثناء وتناولت فنجان الريّس وشربت منه رشفة وثانية ثم أعادته إلى مكانه على الطاولة، وبعد أن انتظرت قليلاً اقتربت من الثاني وشربت منه رشفة، ومن الثالث أيضاً، ثم سكبت الفنجان الآخر وشربت منه رشفة أيضاً. لم تسكب زوجتي لها فنجاناً أولاً، فهي لا تشرب القهوة أبداً في المساء، لكنها الآن سكبت لها فنجاناً، وجلست قرب الريّس تشربه.

– لماذا غضبتَ هكذا ماذا حلَ بك؟ سأل الريّس جاري على شكل لوم فيه قليل من التأنيب. ثم التفت إلى زوجتي وقال لها على سبيل التوضيح الذي يحوي شيئاً من الاعتذار:

– عمل متواصل. ارهاق.

تطوُّر

هذا تطور لم ألحظ مثله أبداً أبداً من قبل. هذا شيء إيجابي جداً. انه الأول من نوعه منذ بداية المسألة. عساه يكون فاتحة خير. لكن، قلت

في سري، عليّ التزام الهدوء وعدم الإفراط في التفاؤل. رواق. وإياي والخطأ.

ثم تناول فنجانه ورفعه إلى شفتيه، لكنه قبل أن يرشف منه قال كمن تذكّر فجأة:

- والآخر؟

كنت أنا في هذا الوقت جلست من جديد بعد التدخل الإيجابي للريّس، فقلت، استجابة لتساؤل الريّس، وقد شجعني على القول التطور الذي حصل، وهذا الشيء الشبيه بالاعتذار من قبل الريّس، وشجعني أيضاً أنني جلست بمبادرة مني بعدما أنهضني جاري، بلا أن يعترض عليّ أحد، ثم، وهذا شيء مهم جداً، هذه أول مرة يتوجه فيها أحد منهم إلى أحد بكلام من هذا النوع، مما يعني أن شيئاً في الوضع ككل قد تغير، أو انه في سبيله إلى التغير. قلتُ إذن، ردّاً على تساؤل الريّس "والآخر؟":

- أنا أحمله إليه!

- أنت طالع ع بالك تكزدر ونحنا محروقين حتى نخلص! هذا التضييع للوقت يجب أن نضع له حدّاً "بقا". خلص! قال هذا الكلام بصوت مرتفع، وبعصبية غير متوقعة، خاصة أن إشارات بدأت تظهر في الجو توحي بميل نحو الانفراج، ثم وضع يده على جنب زوجتي باحترام وقال لها:

- حلّي المشكلة.

كانت زوجتي في الواقع بدأت تنهض عندما طلب منها أن تحلّ

المشكلة، فقد فهمتْ فوراً أن عليها هي يقع واجب القيام بهذه المهمة. (غريب! شيء ما يحيّرني في امرأتي منذ فترة، منذ أن ردّت بعصبية آخر مرّة، فهي لم تعد تقترف عملياً أي خطأ، وتبادر دائماً في اللحظة المناسبة، وبالطريقة المناسبة). فحملت إليه، إلى الآخر، فنجان القهوة و لم تعد.

بقيتْ هناك معه.

او ربما قصدت غرفة الجلوس، وبقيت فيها وحدها تستعيد أنفاسها قليلاً، وتحلم ربما بأعجوبة تخرجنا من هذه الورطة، التي تنذر بجرّنا إلى الهلاك.

وهذا الاحتمال، أي أن تكون وحدها، هو أقرب إلى الواقع من الاحتمال الآخر، أن تكون معه، لأن أي صوت أو ضجة أو شيء لا يبلغنا هنا في المطبخ من هناك.

– إذن! قال الريّس، ثم صبر.

– هذه هي المرة الأخيرة التي أطلب فيها منك أن تتكلم. سمعت؟ فتكلم الآن وإلا رأيت وسمعت ما لن يسرّك أبداً! واضح؟

غريب! قال: "وإلا رأيت وسمعت..!" وكأنه يريد أن يوجعني بغيري وليس بي. فماذا يقصد؟ وبمن؟ (بمن؟).

لم أجب على سؤاله، لكنه أصرّ فردد مرة ثانية وبعزم أقوى:

– واضح؟

– نعم واضح! قلت.

- إذن هيّا! فلن تضيّع ثانية واحدة بعد الآن، وإلا دفعت ثمنها غالياً جداً، فقد احترمناك كثيراً قدام زوجتك، ورأيت بنفسك كم كرّمنا زوجتك قدامك واحترمناها، كنّا متعاونين معك، ومتفهمين لك حتى أقصى الحدود، فبادِلْنا بالمثل، أو بادلنا الشيء بنصفه على الأقل. وإلا فأنت رجل عاطل جداً وبلا أخلاق بالخالص. قلت:

- فليكن ما أردتم!

يجب أن نخلص من هذه المسألة بقا، قلت لهم، والآن وبشكل نهائي وحاسم. وطلبت منهم كدليل على حسن نيتي، وعلى إصراري على وضع نقطة نهائية لهذه المأساة الملهاة، أن يحددوا بدقة ما يريدون مني معرفته، حتى لا أتيه في روايتي للأمور، وحتى لا أسترسل واستطرد عبثاً، فأثير غيظهم ككل مرة، ونضطر أن نبدأ من جديد، فهذه الطريقة لم تعد تنفع، ويجب استبدالها بطريقة أكثر فاعلية، لأن الوقت حان وقد ضجر قلبنا جميعاً من العَلّ والعَلْك.

- رجعنا! قال الريّس باشمئزاز، وبغضب ظاهر - وإن مازال مستوعباً.

هنا سمعت صوت زوجتي تصرخ صراخاً حاداً ثم تصمت. فتساءلت في سري أمن غرفة النوم أم من غرفة الجلوس يجيء هذا الصراخ، هل يؤذون الصبي. ثم سمعتها تقول:

- ابني حبيبي!

صدق ظنّي، وكان خوفي في محله... الصبي! ياالله... ياالله... ياالله... فما الذي أوهمهم بأن البيت أكثر مؤاتاةً للبوح من المكتب

أو من غرفة التحقيق؟ لكنني قبل أن أهمّ بالوقوف انتبهت لحسن حظي أن زوجتي توقفت عن الكلام وبشكل لافت بشكل يثير الريبة! كأن صوتها مسجل على شريط ينطلق ويتوقف بكبسة زرّ... فهل ما تزال زوجتي تمسك بيدها الأمور كلها مسكَ معلّم عارف كيف عليه أن يلتوي حتى لا ينكسر، وأي حبل عليه أن يشدَّ وأي حبل عليه أن يرخي، حتى لا تفلت الأشياء من يديه.

أو أن زوجتي...

او أن زوجتي باتت مقتنعة، (أقنعوها!) انني مذنب وأنه عليّ أن أعترف. وفي هذه الحالة، تصبح هي أيضاً من الذين يوافقون على استعمال جميع الوسائل - جميعها - لإرغامي على الاعتراف.

هل أقنعوها فعلاً بأنني زوج غير أهل. فهؤلاء السَفَلة قادرون على اقناعها بما يشاؤون. لا!

قلت:

- أقسم لكم بأغلى ما عندي بشرفي وَ...

وأردت أن أتابع أن أقول: وبشرف زوجتي وحياة ابني! لكنه منعني و لم يتركني أتابع، وقاطعني فقال هازئاً:

- بشرفك؟ عم تحلف بشرفك وصار لك طول النهار عم تنتاك؟

أَستَحِقّ! نعم استحقُّ هذا الكلام. أَفَمَا أنا الذي عرّضت له خاصرتي ليطعنني بها؟ فلأعترف بأنني لا أُجيد فنّ شيء أبداً! فما الذي دعاني إلى استعمال كلمة شرف؟ فلو فكرت لحظة قبل هذا القسَم السخيف،

أفما كنت حزرت الجواب؟ الجاهل الجاهل كان توقعه. فلأعترف بأنني بغل صفر لا شيء. أُجيد الانحدار فقط.

ثم سمعتُ صوت زوجتي من جديد يصرخ مستغيثاً:

– ابني ولدي حشيشة قلبي!

تجيد التمثيل إذن زوجتي، انها تجيد التمثيل، والتمثيل الإذاعي خصوصاً. هي أيضاً ترغب في الضغط عليّ حتى أعترف. هذا بات واضحاً كالنهار. ولكن بماذا اعترف؟ بماذا يا ربي؟ بماذا؟

بلى!

فقلت لهم وأكّدت أن هذه المرّة ستكون مختلفة عن المرات السابقة وانها ستكون الأخيرة.

– رجعنا! ردّد الريّس، رجعنا كمان من جديد.

هنا، تقدم جاري مني، وقرّب وسطه من وجهي وشد رأسي إليه – إلى وسطه! فجاري كلب صرف. ثم مد يده إليه. سأقتله قلت في سرّي، سأقتلهم جميعاً، لكنني سأبدأ به، بهذا الكلب.

وفجأة حدثت المعجزة:

– أنت متعب الآن ولا شك، فاذهب وارتح قليلاً على فراشك، ونم ساعة أو ساعتين، نخرج نحن أثناءها ثم نعود. لكن على شرط واحد أوحد، وهو أن تعدنا الوعد النهائي بأنك ستقول الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة.

ثم عاد وكرر ما قاله، عندما رآني مندهشاً فاتحاً فمي كالأبله.

لقد سمعت جيداً من المرة الأولى.

فهذا إذن تطور آخر قلت، بل أكثر من تطور، هذه معجزة. معقول؟ فأي مقلب يعملون، ما هذه الحيلة وما هذا الفخ الذي يريدون إيقاعي فيه. ثم رأيتهم يستعدون للخروج، وقد استعدوا بالفعل! رأيت ذلك بما استطعت من عيني الاثنتين، وهم الآن جاهزون للخروج، لكن ينقصهم رفيقهم الآخر الرابع الذي لم أره حتى الآن، والذي أتشوّق لرؤيته وقد تحوّل إلى شبح، فحزروا ما يدور في رأسي فقالوا لي:

– الخميس!

ماذا يعني هذا: الخميس؟ لم يحزروا إذن شيئاً مما يدور في رأسي، فلماذا الكلام على الأيام، ولماذا الخميس دون غيره؟ غريب! (أو انني لم أعد أتمتع بإدراك سوِيّ؟)

– بلى، بلى، سيخرج معنا!

الله فهل يحاورون دماغي؟ فهل يتواصلون مع دماغي دوني؟ "قل الحقيقة إذن يا رجل" قلت في سرّي. "قل الحقيقة بلا إبطاء"!

قلت: تريدون الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، فهاكم إيّاها:

أنا لم يكن عندي علاقة بهذا الرجل (أقصد الرجل الذي في الصورة)، لا من بعيد ولا من قريب، و لم أكن أحبه و لم أكن أكرهه، بل لم أكن اسمع به، كنت فقط أعرف بوجوده، بأنه موجود ولا شيء غير ذلك، و لم أكن أتابع نشاطاته و لم أكن أعلم أن عنده نشاطات، و لم أكن أعرف مواقفه، بل فوجئت فيما بعد بهذه المواقف – فقاطعني الريّس، هنا وسألني عمّا أقصد بهذه العبارة الأخيرة، وبمعنى قولي فوجئت

بالتحديد (لا بد من اقتراف الخطأ، الإنسان كائن مخطئ) وما هي هذه المواقف التي فوجئت بها، وهل كانت المفاجأة إيجابية أم سلبية، فقلت له أن كل شيء سيتضح فيما بعد. كنت قادراً على سوق كلامي بالشكل الذي أريد، وهذا أعطاني قوة وثقة بنفسي كنت بحاجة لا توصف إليها.

فوجئت إذن بهذه المواقف، وبما استتبعها، لأني لم أعرف يوماً مدى التأثير الذي كان يستطيع ممارسته، وما زلت حتى الآن غير قادر على معرفة ذلك بدقة، لأن العناصر التي تسمح لك بمعرفته بالشكل الذي تتمناه والذي يجعلك تشعر براحة البال، غير متوافرة في الوقت الحاضر، للأسباب التي لا يجهلها أحد:

– أنت ماذا تعمل خارج مهنتك؟ قاطعني الريّس والحيرة بادية عليه.

فأجبته بأن لا قيمة الآن لهذه الأشياء، خاصة أن كل شيء سيتضح فيما بعد.

– دعنا نتابع كشف الحقيقة! قلت له.

فسكتُّ، فأنا السيّد الآن ما دمتُ بيدي الحقيقة، فتابعت كلامي. لكنني هنا للأسف، بدأت أشعر بالوجع يتزايد، بينما كنت أتوقع العكس، أن يخف قليلاً على الأقل، لأنني ارتحت نوعاً ما نفسيّاً من هذا الضغط الهائل الذي كان يزن عليّ. اعتقدت أن السلطة التي أعطاني إياها البوح بالحقيقة، ستخفف من ألمي. لكن للأسف، جرت الأمور على غير ما توقعت وتمنيت.

المهم – تابعت كلامي – أنه كان من الصعب عليّ أن أعرف إذن كما أتمنى عادة أن أعرف عندما يكون الموضوع يهمّني أقصد مثلاً... "فهمتَ قصدي، أكيد؟" قلت له، لئلا يظن أن الشخص كشخص لا يهمني، أي لا أهمية له، أو أن ما يؤمن به مثلاً... فقاطعني قائلاً: "أكيد، أكيد!" أي أن قصدي من كلامي كان واضحاً جداً بالنسبة إليه. ففوجئتُ!

فوجئت هنا أيضاً، لأنه تطور آخر إيجابي جداً، غير منتظر ولا متوقع، فقد بدا انه يسمع كصديق، يتساهل فلا يأخذ الكلام على الفاصلة إنما يأخذ منه القصد، وقصد الصديق عادة طيّب وإلا ما كان صديقاً. غريب. فماذا إذن يجري، فهل جاءهم خبر عنّا، فهل طلب منهم أن يكونوا لطفاء معنا، أو أن ينهوا المسألة كلها بهدوء ولطف ثم أن ينسحبوا. غريب.

ثم قلت لهم متابعاً البوح بالحقيقة: أعترف إذن أني لم أكن أحبه! وبالتأكيد لم أكن أكرهه. لكن لم أكن أحبه.

– أوكي. لكن لماذا لم تكن تحبه، وما الذي كان فيه لا يحبّبك به؟

– لكن لم أكن أكرهه.

– أوكي، أوكي، لكننا نسألك لماذا لم تكن تحبه؟

في الحقيقة، لا أدري لماذا لم أكن أحبه، و لم أفكر في الأمر يوماً، لم يخطر على بالي. على كل، نادراً ما كنت أسمع به، بل ربما لم أسمع به أبداً من قبل. الشيء الأكيد، هو انه عندما حدث له ما حدث وسمعت بالأمر، لم أتفاجأ – اقصد لم أتفاجأ أبداً بكون هذا الشخص الذي

حدث له ذلك كان موجوداً. فأحياناً تتفاجأ بوجود شخص، مثلاً كأن يقال لك انّ ابنة فلان تزوجت، فتتفاجأ فتقول وهل لفلان ابنة!

قلت لهم كل ذلك بصراحة. وأعتقد انهم قدّروا لي صراحتي هذه.

- لكننا مازلنا مكاننا بالنسبة لسؤالنا وهو انك لم تكن تحبه فلماذا؟ خاصة انك لم تُفاجأ بوجوده عندما...

فقاطعتهم هنا، قاطعتهم عن وعي، لأنني لم أكن أريد أن يسمّوا الذي جرى له باسمه، أقصد أن ما جرى له، له اسم، فلم أشأ أن يذكروا اسم هذا الشيء الذي جرى - اسم المسمّى! تشاءمت من ذلك، ورأيت انه قد يكون إيذاناً بلحظات قادمة قاتمة، فقاطعتهم فقلت:

- نعم لم أفاجأ بوجوده في الوجود، أي في الكون، هذا صحيح.

- يعني انه كان موجوداً في ذهنك، في وجدانك، وانك كنت لا تحبه فلماذا؟ أجب عن هذا السؤال، لأننا بدأنا ندوخ لكثرة ما أرجحتَنا.

أردت هنا أن أجيب بأن مشاعر الإنسان تجاه كثير من الناس، قد تكون مشاعر حيادية أو غير مبالية، لكنني تنبهت إلى أن شخصاً مثله أو - فلنسمِّ الأشياء باسمائها - شخصية مثله، من الصعب جداً أن تكون مشاعر الناس تجاهها حيادية أو غير مبالية، كما هي مشاعرهم تجاه أي كان من الدابّين على رجلين اثنتين فوق قشرة الأرض. فكيف سيصدقونني إذن! فمرّة أنسى اسم شخص صديق ما زلت مسلِّماً عليه بحرارة، ومرة أنسى اسم شخص دوّنت رقم هاتفه على دفتري بيدي،

ومرّة أنسى الشخص بينما اسمه صريح على دفتري، ومرة تكون مشاعري حيادية تجاه شخص مختلف عن الآخرين، غير عادي... وبَعْدَانْ!

أمّا الساعة، فلم يسألوني شيئاً عنها، وحين أردت إخبارهم بقصتها رفضوا أن يستمعوا، تماماً كما رفضوا الاستماع إليَّ حين أردت إخبارهم عن اسمي. غريب! (ولم يسألوا عن اسم زوجتي بل كانوا يكتفون بمناداتها يا أمّ كذا وحسب).

أعترف أنني لست من الذين يُصدِّقون بسهولة، وأعترف في الوقت نفسه أنني أقول الحقيقة. وهذا بالضبط مأزقي، وهذه بالضبط مأساتي. وليت الأمر كان متعلقاً بي وحدي ومقتصراً عليّ، لكنني ورّطت معي زوجتي وابني، فلست إذن وحدي، لذلك ما زالت تزداد قناعتي بوجوب التعاون معهم إلى أقصى الحدود، وبضرورة أن أفتح لهم قلبي وعقلي وبيتي وكل ما هو مقفل عندي، إلى أن يتغيّر ظنهم بي وأربح ثقتهم. فعندذاك، وعندذاك فقط، يسهل عليهم تصديقي.

لكن حذرهم مني للأسف كبير جداً، وما هُمُ الآن في صدد معرفته عني (ومنّي!) لا يشجعهم على التخلي عن هذا الحذر. الحلقة الجهنمية! فكيف كسرها والخروج منها. كيف؟

زوجتي! زوجتي يجب أن تكون المدخل إلى كسب ثقتهم، وبالتالي إلى الحل.

أعتقد أن الحل عندها بين يديها وهي وحدها المؤهلة له. لكن كيف... كيف تستطيع زوجتي أن تكسب ثقتهم، مع المحافظة على

احترامهم لي، ومع الابقاء على الكرامة مصانة.

- لم تسأل عن زوجتك منذ خروجها من هنا! أنت كائن غريب، أناني، لا يهمك إلا نفسك. أما سمعت صراخها؟

- إنها تمثّل!

"انها تمثّل!" قلتُ ثم توقفتُ لحظة لأتأكد من اني سمعت نفسي تقول هذا الكلام، ومن أنه كلام صدر عنها - عن نفسي بالذات - ثم تابعت من تلقاء نفسي، وبلا أن يكون هناك حاجة للمتابعة، وكأن الكلام وحده يجرّ نفسه ويجري إلى حيث يشاء، قلت:

- لم أكن أعرفها تجيد التمثيل إلى هذا الحد! وخاصة التمثيل الإذاعي!

فنظروا إليّ بحيرة وباستغراب، ولسان حالهم كأنه يقول، هل جُنّ هذا الرجل، أم انه يريد بيعنا زوجته مقابل أن نتركه وشأنه. بل كان لسان حالهم يقول هذا بالتأكيد، لأنهم لم يترددوا طويلاً قبل أن يسألوني السؤال بلا حرج، فأجبتهم بأنّ لكل شيء حدوداً! أجبتهم بهدوء، لكن بصرامة وبقوة، فهزوا برؤوسهم علامة انهم فهموا وعلامة انهم موافقون على ما فهموا، لكنني في الوقت نفسه، شممت في هزّ رؤوسهم هذا رائحة هزء، فأردت أن أكون أكثر وضوحاً، لأنهم لا يتورّعون عن فهم كل ما يصدر عني وعن زوجتي، كما يشاؤون وبما يناسبهم فقلت:

- كلامي جدّ!

فقالوا إنهم مقتنعون بذلك.

لكن هنا أيضاً ضمّنوا كلامهم شيئاً من الهزء. أو ربما ضمّنوه على الأرجح رسالة مفادها "اننا فهمنا" (يعني انهم فهموا ما أرادوا). لكن ماذا؟ ماذا فهموا غير ما قلت وهو أن لكل شيء حدوداً، وان تخطّي الحدود التي على الإنسان الوقوف عندها، أمر غير مستحب، قد يجلب المتاعب، وقد يجلب أكثر من المتاعب. فهذا ما قصدته من قولي، فما الذي فهموه؟

أمّا إذا أرادوا الاصرار على اعتقادهم انني قصدت المقايضة، فسيكون ذلك خطيراً جداً (عليَّ بالطبع، لأنه سيكون متضمّناً إقراراً صريحاً مني بأني مذنب). لذلك، ولتفادي هذه المطبّات، رأيت من الضرورة أن أكرر لهم أن ما قلته قصدته، وانه ليس فيه أي حرف مجاني:

- جدّ!

- ولِمَ التكرار. لقد فهمناه على أنه جد. بل يهمّنا أن يكون كذلك لأنه يجعلنا نتقدم كثيراً في عملنا، لكننا لا نعتقد انها توافق على ما قلت.

"توافق؟"

توافق على ماذا؟ ولماذا؟ قد قلت عنها كلاماً سلبياً فلِمَ يطلب منها أن توافق عليه؟

أخطأت بلا ريب في قول ما قلت، فما كان عليّ أن أقول. لكنه ليس الخطأ الأول، ولن يكون الخطأ الأخير... بلى!

بل قد يكون الخطأ الأخير... قد يكون الخطأ الأخير.

- بل لا نعتقد انها كما قلت. أما ما نحن أكيدون منه فهو انك مفترٍ. يبدو أن هذا شيء فيك. جزء منك.

غالياً جداً سأدفع مقابل ما جنت نفسي عليّ. الاثنان!

علقت في الإثنين معاً: المقايضة والذنب: أريد المقايضة لأنني مذنب، اللعنة! اللعنة عليّ وعلى اليوم الذي ولدت فيه، وعلى يوم قريب (جداً) أموت فيه (الآن؟). واللعنة على من خلّفني وخلّف الذي خلّفني. اللعنة عليك يا والدي واللعنة عليك يا أمّي، فكيف ربّيتماني.

- أقصد أن هناك حُدُو... وأردت أن أتابع لأقول حدوداً، لكنهم قاطعوني.

- تتقدم ثم تتراجع، تتقدم ثم تتراجع، هكذا من أول الدرب، لذلك لا نصل ولن نصل، فمنذ لحظة وعدتنا واقسمت انك ستبدأ بقول الحقيقة ثم شردت... والآن عرضت علينا شيئاً فلمّا خفت إذ رأيتنا ندافع (نحن!) عن زوجتك تراجعت ورحت تردد: جد، جد، جد، إلى ما لا نهاية. فقل إذن ماذا تريد وإلى ماذا تريد أن توصلنا. أفصح. هل نسيت اننا هنا لا لنلعب ولا لنضيع الوقت، بل لنعرف فقط وبسرعة من مزق الصورة. فمن مزق الصورة، يا منيوك يا ابن الكلب.

فليهينوني بما شاؤوا، لكن أبي لا! لا يحق لهم إهانة والدي! أذاني هذا في أعماقي، أن يقال لي ابن كلب، فأنا من غضبي شتمته أمّا هم فعن احتقار.

- انْحنِ ولاه! انْحنِ! طبّ!

وأنا في الواقع ما توقفت عن البوح بالحقيقة، لكنهم جرّوني

بأسئلتهم للكلام على أشياء جانبية، وقلت لهم ذلك فلم يرُق لهم. قالوا لي انهم عمدوا إلى الأسئلة لما رأوني لا أبوح بشيء، فقلت لهم إذن أتابع، فلا شيء يمنعني، بل على العكس فما زلت على استعداد مطلق. فابتعد عني الكلب، ابن الكلب. (أعتقد أن زوجتي لم تر شيئاً، لكنني لا أجزم).

- ولاه! تكلّم وخلّص زوجتك بدل أن تهذي بها.

فقلت بسرعة حتى لا أضيّع الوقت، وحتى اخلّص زوجتي من هذا الجحيم (الجحيم بعد الموت صورة بلا شك عما يجري هنا فوق قشرة الأرض)، فقلت:

- لم أكن أحبه!

فضحكوا، فقهقهوا بالضحك، لأنهم اعتبروا انني لم أبح بشيء.

- بعدنا محلنا! فبماذا تقدمنا هكذا. ما الجديد. نحن عارفون انك لا تحبنا، من زمان. أخبرنا من مزّق الصورة، ولا تخبرنا عن مشاعرك نحونا لأننا نعرفها ولا نريد أن نسمعها.

لا يريدون أن يعرفوا مشاعري نحو الصورة وأنا هذا كل ما عندي أن أبوح به. هذه هي الحقيقة الوحيدة التي أريد أن أوصلهم إليها، ولا حقيقة أخرى عندي. انها نهاية النهاية. انتهى كل شيء بالنسبة إليّ. طوبى للذين يستطيعون الكفاح بعد هذه المرحلة، أمّا أنا فهنا عند هذا الحد أعلن استسلامي. فكل ما عندي لأبوح به كان أن هذه الصورة تستفزّني كل مرة أمرّ من أمامها، فأخاف أن تفاجئني نفسي متقدماً منها ممزِّقاً إيّاها بغضب. كنت أشيح بنظري عنها، لئلا تشدني نحوها

كما تنشد فراشة نحو الضوء حكماً فتموت. كنت أخاف من هذه الصورة كثيراً، كثيراً جداً، بحيث اني توجست فيها الشرّ.

- ما زلت تحدثنا عن مشاعرك وهذا آخر ما قد يهمنا.

ثم قلت لهم أيضاً بكل صراحة، انني لا أحب أن تُعلَّق صور الأموات بهذه الطريقة على الحيطان، كائناً من كان هؤلاء الأموات، ومهما كانت الطريقة التي قضوا بها. لا أحب أن يُجبر الناس الآخرون على أن تقع عيونهم يومياً عليهم، قسراً. نعم! هذه مشاعري بكل بساطة وبكل وضوح. فما معنى أن يُفرض عليّ أن أرى يومياً صورة شهيد مثلاً، أو صورة عريس قضى ليلة عرسه في حادث دراماتيكي، أو صورة طفل قتله الحقد الأعمى، أو اغرقه فيضان أو طمره زلزال! ماذا يعني ذلك ولماذا؟ هل يعني هذا أن الفقيد غال غال، وانك أنت أهل الفقيد، وان التعازي يجب أن تقدم إليك، والعطف أيضاً، والتقدير والتكريم، وكل ما يليق بفقيد كبير؟

- ثم اعفنا من سمومك الآن وقل لنا فقط من مزّق الصورة؟

ولا يمكن إطلاقاً أن أجيبهم بأنني لا أعرف، لأن هذا الجواب كلفني الكثير، فأيّ كلام أستطيع أن ابتدعه الآن. (كان عليّ دائماً ابتداع كلام آخر كل مرة أُسأل فيها هذا السؤال). فكّرت كيف أُجيبهم، لكن إيجاد جواب مختلف على الدوام، عن السؤال ذاته، ليس بالأمر السهل. وكنت مستغرقاً في همّي حين سمعتهم يقولون - يقولون لي:

- أنت متعب الآن، فاذهب وارتح قليلاً على فراشك، ونم ساعة أو ساعتين، نخرج نحن أثناءها ثم نعود، لكن بشرط واحد واحد، وهو

أن تعدنا الوعد النهائي بأنك ستقول الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة.

وهذا تطور آخر قلت. معقول؟ فأي مقلب يعملون، ما هذه الحيلة وما هذا الفخ الذي يريدون إيقاعي فيه. ثم رأيتهم يستعدون للخروج، وقد استعدوا بالفعل، فإنني أرى ذلك بما استطعت من عيني الاثنتين، وهم الآن جاهزون، لكن ينقصهم رفيقهم الآخر الرابع الذي لم أره بعد حتى الآن، والذي أتشوّق لرؤيته وقد تحوّل إلى شبح، فحزروا ما يدور في رأسي فقالوا لي:

– لا تهتمّ. لكن عِدنا. ولا تنسَ أن وعد الحرّ دين!

فترددت في الرد بالإيجاب، لأنني تساءلت كيف أفي بوعدي إنْ وعدت!؟ خاصة انني بُحت بما كنت أخبئه عنهم، فسمعوا كلامي وهم لا يريدون أن يسمعوه، لا لأنه أزعجهم، بل لأنهم اعتبروه لا قيمة له ولا يستحق أن يسمع. وهذا كان أقصى ما أردت مفاجأتهم به، وقد استلزمني كلَّ الذي فعلوه بي، حتى استطعت إعداد نفسي لقوله والاعتراف به، وها هم الآن يسخرون منه! غريب. فما الذي يجري إذن ولست أفهمه؟ فماذا أصاب قدرتي على الإدراك، أنا المدّاح نفسي دائماً بالذكاء. ولَمعتْ في ذهني الحقيقة فجأة:

إنهم يعتدون!

إنهم يعتدون عليّ وعلى أهل بيتي وعلى بيتي، هذه بالضبط حقيقة ما يجري.

إنه اعتداء!

هؤلاء معتدون، ويجب التعامل معهم على أساس انهم معتدون،

وأي طريقة اجابههم بها سأستطيع الدفاع عن حقي في اعتمادها أمام كل المحافل والأفراد والمؤسسات. ثم انهم لم يعرّفوني بأنفسهم، فلم يبرزوا لي ورقة أو بطاقة تعرّف بهم أو بمهمتهم. إذن، وبعملية حسابية بسيطة، رأيت أن ادعهم يتركون البيت حتى آخذ نفَساً وأدبّر كل شيء قبل عودتهم، عليّ أولاً أن أستطيع تدبير هروب زوجتي وابني بطريقة ما، (يا إلهي! هل هذا ممكن؟)

لم أفكّر أبداً في يوم من الأيام أن أقتني قطعة سلاح. لكن كل شيء يمكن أن تجيء لحظته. فلو كان عندي الآن قطعة سلاح لكنت أسعد رجل في الدنيا.

- كن حذراً!

معقول؟ عرفوا اني أفكّر في السلاح؟

فذهلتُ ذهلت كيف حزروا، وهم ما زالوا حازرين رغبتي في رؤية الرجل الرابع يخرج معهم. فهل يقرؤون ما يجري في الرؤوس؟ هل أدركوا بوسائلهم السحرية ما أُخطّط لعمله أثناء غيابهم؟

- ونحن لا ندعوك للحذر خوفاً عليك، بل رفعاً لكل لوم عنّا، لأنك لن تستطيع النيل منا بل نحن الذين سننال منك، في حال استسهلت...

نعم معقول!

أليسوا هم الذين مازالوا، من أول النهار، يقرؤون أفكاري، ويعرّونني قطعة قطعة، ويفتحون في جسمي وفي ذاكرتي المكان الذي يريدون!

أليسوا هم ذاتهم الذين عرفوا ما جرى بيني وبين الشحّادة المستعطية وفضحوني أمام زوجتي (ما كان بالإمكان أبداً أبداً ألا اعترف بالحقيقة! فأنا ممن يعجزون عن مجابهة الحقيقة، فهي الشيء الوحيد في هذا العالم الذي استسلم له استسلاماً)، ورأيتها كيف تتسع عيناها وتندلقان. لكنني سأستطيع اقناعها فيما بعد بأنني قلت لهم هذا لخطة: – "لكي تستطيعي أن تلعبي دوراً إيجابياً وفعّالاً!"

وحين أصبحوا على استعداد للخروج كانت زوجتي بينهم، جاهزة مثلهم. و لم أكن أبداً واقعاً في الخطأ أو في سوء التقدير، لأنني رأيتها بثياب الخارج، وبحقيبة يدها، وبكل شيء تضعه أو تكوُنُه حين تخرج من بيتها. كان من المستحيل عليّ أن أخطئ في إدراك ما تفعله امرأتي: زوجتي تخرج من بيتي.

(ليت عندي قطعة سلاح!)

لكنهم بالمناسبة كيف عرفوا أن بيتي خال من السلاح وهم لم يفتشوه؟ فكيف اطمأنوا واستقرّوا. كانوا أكيدين إذن من خلوه من السلاح وإلا كانوا فتشوه، فمن أطلعهم على ما فيه. هل يمكن أن يكون شخصاً آخر غريباً عن البيت؟

وأرادت زوجتي أن ترافقهم، لماذا؟ هل يمكن أن تكون خافت مني، من أن ألومها على أشياء، أو من أن انسب إليها أشياء، أو من ماذا؟

هل هي أيضاً رأت في عينيّ الشرّ؟ هل حزرت ما في نيتي القيام به؟ أو انهم أقنعوها، وبماذا أقنعوها؟ بأني monstre وبأني كائن لا يليق

بها. وابننا؟ فها هي جاهزة للخروج معهم وحدها بلا الصبي. فيا إله الحالات الصعبة أنجدني فهل تريد هجري وهجر كل أثر مني، بما في ذلك ابني ثمرة بطنها، هل أقنعوها بأنني وراء كل السفالة المنتشرة في هذا الكون، هل أروها صوراً. لا أذكر اني رأيتهم يصوّرون.

لو كان في استطاعتي الوصول إلى قطعة سلاح الآن، لكنت شفيت غليلي. أنا أسمع عن بشر يتماهون بجلاديهم، بل عن شعوب بأكملها، ونساء يُغْرَمْنَ بهم، لكن هذا لا يمكن أن يحصل مع زوجتي، أنا أكيد منها، أنا أعرفها حلّة ونسباً. مستحيل. لكنها على همّة الخروج معهم وحدها بلا ابنها، وبلا أي حاجة أخرى، فقط بما عليها من ثياب، فأردت أن أسألها بهزء وألم وبلؤم أيضاً عما إذا كانت ستحرق ثيابها هذه بعد خروجها، لتتخلص من كل اثر للشرّ (ما كنت قلت الرّجس أو الدنس)، فلم يجئني الكلام، لم أشعر بالحاجة ملحةً إليه، فسكتُّ ولم أسألها أبداً عن شيء، فلمَ السؤال حين تكون عارفاً بكل شيء، وأكثر.

لكنها ماذا ستقول لأهلها، ماذا ستخبرهم وكيف، عن هذا الذي جرى، وماذا سيقولون لها، فهل سيقولون لها: - حسناً فعلت! لقد تأكد احساسنا الأول الذي لم نخبئه عليكِ عندما طلب يدك. قلنا لكِ انه ليس أهلاً بكِ، فما رغبت بتصديقنا. على كل هجْره الآن أفضل من الغد، لأن هذا شيء يجب أن يحصل عاجلاً أم آجلاً، وإذا كان يريد ابنه فخلّي له بذرته! وسيغمرونها بالقبل والعطف والحنان وستبكي من غبطة وامتنان.

وهذا الصبي سينسونه! وسيكون عليّ أن اعتني به وحدي لأن

أهلي بعيدون جداً. فليكن! أنا أقبل التحدّي.

لكنهم قبل أن يخرجوا، وهي معهم، قالوا لي بألا أدخل إلى غرفة الجلوس أبداً، لأنهم تركوا فيها أشياء تخصهم وحدهم، ولا دخل لي فيها، ولا يحبون أن يراها أحد أو أن يقترب منها، وقالوا أن دخولي إليها سيعتبر اخلالاً بالاتفاق الذي جرى بيننا، بل انه سيعتبر استلشاقاً بالمهمة التي يقومون بها، وتحدياً لهم ولما يمثلون. وأصروا عليّ أن يصدر من فمي كلاماً واضحاً وصريحاً يفيد بأنني لن أفعل ذلك، حتى لا أدّعي فيما بعد أنني لم أَعِد بشيء. وحتى تكون مسؤوليتي واضحة في حال أخللت بما وعدت، خاصة انني فنان بارع بالتنصل من المسؤوليات – قالوا هذا الكلام الأخير (تلفظ به الريّس على ما أذكر) بثقة الخبير المجرّب، فهم باتوا يعرفونني جيداً، وقد مضى على ملازمتهم لي نهار كامل.

أعتقد أني صرّحت بوعدي بكلام مسموع وواضح.

ثم خرجوا. طلبوا مني أن أستدير حتى ينسحبوا بأمان، فاستدرت لأستقبل بوجهي المجلى وهم ينسحبون، فوقع نظري على غرضين بنوع خاص: السكين الكبير وأسياخ شك اللحم وشوائها.

سيكون دفاعاً عن النفس قلت، وهو أمر مشروع في كل القوانين والأعراف والأديان، ولن يلومني عليه أحد، ولن يكون عليّ أن أعتذر من أحد. بالعكس.

لكن موقف زوجتي سيضعّف كثيراً جداً من موقفي، بل سيجعل مني قاتلاً وحسب، وابني لا يستطيع أن يشهد.

لكنني سأجد حلاً، فلا يجوز أن استسلم. ثم أن الاستسلام ليس من طبعي أصلاً، بل طبعي الجَلد والصبر والكفاح.

والهاتف؟ هل أستطيع استعماله للرد والاتصال أثناء غيابهم؟ لم أسألهم. وأول شيء حصل بعد خروجهم من بيتي كان الهاتف. رنّ! فماذا أفعل؟ فهل أردّ؟ كأنهم هم الذين تلفنوا، كنت مقتنعاً بذلك بينما كان الجرس يرن، فهل أرادوا امتحاني، هل كانت زوجتي على الخط وأرادوا سماع ما سأقول لها؟ فهذه بالمناسبة أكبر ورطة في الكون أن تكون زوجتك ضدك، خاصة حين تكون كما أنا الآن في حاجة حياتية إليها. لم أرد على الهاتف، تركته يرن، وقد رنّ كثيراً، حتى تعب وسكت.

ابني أولاً. قلت عليّ أولاً أن اتفقد ابني، فلم أستطع النهوض عن الكرسي، كنت كأن شيئاً يمنع كل شيء فيّ عن الحركة. أما الوجع فكان عادياً، أقصد انه لم يكن صارخاً كما حين يمسّ طرف سلك مكهرب خصيتيك مثلاً. (أنا بالمناسبة لو خُيرت بين أن يلامس مني هذا السلك الخصيتين أو الذَكَر أو داخل الأذن، لما اخترت داخل الأذن بالتأكيد). كان الوجع يسمح إذن بالمبادرة والحركة، لكنني لم أستطع النهوض. ثم ولشدة ما حاولت ربما، شعرت كأن أحداً أو أكثر يساعدني على النهوض والمشي حتى غرفة النوم لأرى ابني في فراشه الصغير ممدداً مغمض العينين (غافياً؟) فأردت الاقتراب منه فلم يسمحوا لي وحجتهم انني قد أوقظه فلا يعود يستطيع النوم وان أمامهم عملاً كثيراً... فماذا يجري الآن؟ فهل أنا أحلم، ألست وحدي، ألم أرَهم يخرجون بعيني؟ فكيف إذن أشعر وكأنهم ما زالوا معي يمنعونني عن

الاقتراب من ابني؟ فماذا يجري إذن؟

آه يا أمي لقد جُنّ ولدُكِ! صار يراهم إلى جانبه ويحادثهم، بل يمنعونه عن فعل ما يريد، بينما هو وحده.

أما زوجتي فلم أعد قادراً على معرفة مكان وجودها، كأنهم أخفوها عني أو كأنهم ألبسوها لباساً سحرياً فلم أعد أستطيع رؤيتها، لكني أعرف انها هنا تتحرك بعصبية كأنها تهرب مني، فلماذا هي جافلة مني وأنا ما قمت بشيء منذ تعرفت إليها وحتى الآن، حتى هذه اللحظة، إلا لصالحها.

تمنيت حين اقتربت من فراش ابني في غرفة النوم، أن أنحني عليه لأقبّله، ولأسمع صوت تنفسه خاصة، لأني كنت ما أزال خائفاً على نَفَسه من حبة المنوّم الذي أُجبر على شربها ليغفو بسرعة، حتى يتأمّن لهم الجو المناسب للعمل المنتج. لكني حين هممت بالانحناء أحسست بألم شديد لكن ليس كالآلام الأخرى التي عرفتها من قبل، أحسست بألم عميق وبشيء يدفعني للاستقامة. ثم لما اقتربت من السرير – سريري وزوجتي – ورفعت رجلي لأتمدد عليه أحسست هنا أيضاً بألم شديد.

كنت أريد أن أمر بغرفة الجلوس لأرى من فيها قبل أن أبلغ غرفة النوم، بل لأرى بالتحديد ما إذا كانت زوجتي فيها. لكنها مكان محرّم عليّ نهائياً، لأسباب ذُكرت لي لكني لم أفقه منها شيئاً، ولا أريد أن أفقه منها شيئاً. بل أريد!

كل محجوب مرغوب. هذه طبيعة في الإنسان لا يمكن أن يتخلص منها. فحتى الطفل أن منعته عن شيء أصرّ عليه. ولكن في الظروف

الدقيقة على المرء أن يتغلب على تلقائيته وعلى عفويته وعليه أن يترك السيادة فقط للعقل: وأردتُ أن أدخل إلى الغرفة، ليس لأرى ما فيها، ولكن هكذا بكل بساطة أردت أن أدخل إليها، وكبرت رغبتي هذه وقويت بحيث انها أصبحت لا ترد. وكان يشجعني على ذلك احساسي بالحرية التي مدّني به كوني وحدي. ثم التحدي، فأنا أحب التحدي، أحب اقتحام المجهول، هذه صفة اكتسبتها منذ طفولتي وتعلمتها في المدارس، لكن المناسبات لم تتوافر دائماً لأمارسها. أمّا الآن فالمناسبة عظمى، فماذا انتظر إذن. هيّا. لكن قبل الدخول إلى الغرفة عليّ تهيئة الأدوات التي سأضرب بها، وهي السكين الكبيرة وسيخ من أسياخ الشك، ويجب أن أمسك السيخ بيدي وان أضع السكين في خصري، أضرب بالسيخ أولاً فهو ينشلك بسرعة وسهولة. اتجهّز أولاً بالأدوات وبعدها أذهب إلى الغرفة أفتحها وأدخل وأكون هكذا حاضراً لكل مفاجأة، فلست أبداً أكيداً من نواياهم.

لماذا إذن أتمدد على السرير؟

لأرتاح، لأرتاح!

ثمّ بعدما استطعت رفع الرجل الأولى، حاولت رفع الرجل الثانية فلم أستطع – من حسن حظ الإنسان أن يكون له رجلان اثنتان فقط لا أكثر، فلا يُضطرّ أن يرفع عدداً أكبر منها كلما أراد أن يرتاح على سريره. تصوّر رجُلاً له عدة أرجل مربوطة إلى شيء وملوية عليه بالقوة، كأنها قضيب ليّن، بينما هو يصرخ من الوجع. أو تصور رجُلاً بعدة خصيات مربوطة كلها إلى سلك مكهرب. أعتقد أن رجلين كافيتان. بل خصية واحدة. يعني الـ stict minimum حتى يكون بشراً، لأن

اثنين من كل شيء واقعٌ لا يسعده مضاعفةً، كما لا يقلل من سعده أن يكون له فقط عضوٌ واحد.

تصوّرت نفسي أُبدي هذه الملاحظة الفلسفية إلى الأصحاب. كنا ضحكنا.

ثمّ كأن شيئاً حمل هذه الرِّجل الثانية إلى السرير، لأصبح صراحة عليه، جالساً لم أتمدد بعد. كأن عنايةً ما إلى جانبي على الدوام، وإلا لا أدري كيف كنت تصرفت. ثم تمددت بصعوبة كبرى وبألم، لكن ليس لأغفو بل لأرتاح قليلاً ولأفكر في كيفية تنفيذ المهمة بدقة وفاعلية وبلا أخطاء. فلأبدأ فوراً بتحديد المهمة: أقتلهم واحداً واحداً عندما يعودون. انتظرهم عند الباب لأفتح لهم (هل معهم مفتاح؟ زوجتي رمت في وجهي مفتاحها على الطاولة، قبل أن أستدير ليخرجوا بأمان)، فيدخل الأول فأطعنه بالسيخ ينغرز في بطنه وينفذ من ظهره، ثم أتناول سلاحه من خصره وهو يسقط، وأطلق به النار على الآخرين قبل أن يُدركوا ما يجري. المفاجأة! أهم شيء في هذه الحالات المفاجأة، انها العامل الحاسم الذي، إن لم أستغله إلى أقصى الدرجات فشلت وقضي عليّ وعلى العائلة كلها. ممنوع الفشل. ثم أسلّم نفسي بعد ذلك إلى أقرب مخفر. لكنني من باب الحذر يجب أن اتصل بصحيفة ما، أو بأي وسيلة إعلامية، لأخبرها بما فعلت قبل أن أسلّم نفسي للمخفر فلعلّ! فهكذا أكون محتاطاً لكل الاحتمالات.

من جديد: الأول اتخلص منه بالسيخ، هذا أمر سهل جداً ومضمون، والثاني والثالث بالمسدس (والرابع). لكن هنا في هذه المرحلة من الخطة قد يحدث خلل أثناء التنفيذ: فهل أنا متأكد من انه سيكون سهلاً عليّ

تناول المسدس من خصر الأول، قبل أن يبادر الآخران إلى التدخل والسيطرة عليّ؟ هذا سؤال وجيه. ثم هناك شيء آخر، أكثر خطورة، سيؤدي إن حصل إلى إفشال الخطة كلها، وهو دخول زوجتي أولاً، وهو احتمال وارد لأن الذين أتعامل معهم ليسوا أولاداً غير مجربين، فقد يكون ورد في ذهنهم هذا الاحتمال أثناء إجرائهم حساباتهم، بل لا بد أن يكون ورد في ذهنهم، فيصير السؤال هنا إذن هو ما إذا كانوا قد استبعدوه أم لا. وليس مستبعداً أن يكونوا استبعدوه لأنهم لا يقيمون لي اعتباراً، وفي هذه الحال يكون لعنصر المفاجأة الذي أمسك به أثره الأقصى. لكن يبقى الاحتمال الأول، وهو أن يستطيع الاثنان الباقيان الامساك بي قبل أن أتمكن منهما، أي قبل أن أنجح في سحب المسدس من خصر الأول. وهذا احتمال وارد بالطبع كما ذكرت، لكن عمليةً من ها النوع لا يمكن أن تتم بلا مخاطرة، وما عليّ إلا العمل على التقليل منها، بل على تفادي حدوثها، والطريقة الفضلى لذلك تكون في أن أغلق الباب في وجههما بعد أن أطعنه، فيكون لي عندذاك الوقت الكافي لتنفيذ المراحل التالية: أتناول من خصره المسدس وأطلق النار بسرعة عليهما عبر الباب. يجب إذن أن أحفظ موقعهما جيداً في ذاكرتي وأنا أغلق الباب حتى لا أخطئهما، ثم ولمزيد من الحذر أفتح الباب من جديد بسرعة كليّة (المفاجأة! المفاجأة! أمضى سلاح!) وأنا أطلق النار، اضعضهما أن كانا لم يصابا بعد، ثم أصوّب عليهما وانتهي منهما بلحظة. ثم آخذ زوجتي، التي تكون ابتعدت عنهما عند سماعها أول طلقة، بين ذراعي، واقبّلها، وادخلها فوراً إلى البيت إلى غرفة النوم حيث الصبي، اقبّله (هل سيوقظه صوت الرصاص؟) ثم

احمله واضعه بين يدي أمه وأخرجهما من البيت (لن يخرج أحد من الجيران قبل أن تمضي دقائق، أي قبل أن يتأكدوا من زوال الخطر)، ثم أضعهما في سيارة تاكسي وأرسلهما عند أهلها، بينما أتابع أنا طريقي من هناك إلى المخفر. يجب ألا أنسى الاتصال بوسيلة إعلام. هذا مهم جداً، فلعلّ المخفر! من يدري؟ (وسيلة إعلام أجنبية طبعاً).

أعتقد أن السكين على خصري ستكون عائقاً لي، فلماذا السكين؟ لماذا أريد وضعها على خصري؟ غريب. كأني من غير أن أدري أقلّد أحداً أو طريقة ورثتها ولم أُعِد النظر فيها، أو كأني أخضع لوحي لا أدري من أين يأتيني، فأنا لن أخوض معركة بالمعنى بالمعروف، والخنجر على الخصر كما في الأيام الخوالي، فما سيجري سيكون شيئاً خاصاً جداً، معركةً خاطفة، دفاعاً عن النفس بطريقة مناسبة، دفعاً لمعتد، شيئاً من هذا وحسب.

وبعدما تمددت قليلاً، أدركت انني تعبان جداً، فخفت أن أغفو، فلذلك قلت انه عليّ أن أنهض لأن المهمة ستكون صعبة ودقيقة وخطيرة. وبينما أنا أهم بالنهوض تراءت لي زوجتي، كأنني في حلم، ولم أكن في حلم، كنت أكيداً من ذلك، بل أكثر من أكيد. تراءت لي زوجتي وقد خلعت قميصها لتتهيأ للنوم، ثم خلعت تنورتها، وكانت واقفة كعادتها في مثل هذه اللحظات أمام المرآة، ففتحتُ عينيّ جيداً، على قدر ما استطعت، لأتأكد مما أرى، لكنني لم أرَ شيئاً. كان طيفاً، كان حلم يقظة. وهذا بالضبط ما كان يجب أن يكون وليس العكس، لأنها لم تكن هنا، فقد رأيتها تخرج معهم – كانت أول الخارجين – ورأيتهم يخرجون وراءها.

كان طيفاً، كان حلم يقظة، بل كان ما تمنيت أن يكون. لكنني رأيتها تحاول أن تأخذ شيئاً من الدُّرج نفسه إلى جانب السرير، وهذا لم يكن حلماً!

والآن إلى المبادرة! انتهى وقت الهذي، عليّ أن أبقى دائماً عند الباب جاهزاً وإلا فشلت كل خطتي. هيا! آخذ كرسياً أجلس عليه وأنصت، حتى إذا ما سمعت وقع خطاهم انهض. إياي والضجة وأنا انهض عن الكرسي. لكن غرفة الجلوس كانت تثير فيّ الشكوك، فلماذا حُرّمت عليّ، ماذا وضعوا فيها، هل فيها أحد منهم (الرابع؟) يتنصت عليّ يراقبني، هل هي مقفلة بالمفتاح، أم أن بابها مغلق وحسب ويكفي أن تدار المسكة حتى يفتح؟ فقررت أن انهض وان اقترب من بابها أولاً، وأن أُلصق أذني به علّي أسمع شيئاً، ثم في مرحلة ثانية أفتح الباب بهدوء (أو بسرعة؟) وأُضيء اللمبة وأرى ما الذي حُرّم عليّ فيها. (فما الذي حرم عليّ فيها؟). أم انها حرمت عليّ لتصغر المساحة التي يحق لي التحرك فيها فأشعر بالضيق - محاولة أخرى من محاولات الضغط المتتالية إذن؟ فهل اتُخذ قرارٌ بتحويل بيتي إلى سجن، وهل ستمنع عليّ أيضاً غرفة النوم أو المطبخ؟

سأتفقد إذن غرفة الجلوس وأنا عابر نحو الباب، وليكن ما يكون، فإن معرفة ما في هذه الغرفة شرط ضروريّ لنجاح خطتي، فقد يأتيني منها الضرر الكبير.

لماذا أُحسّ بيدي على بطني بينما هي على الفراش؟ إحساس غريب. فكلما استطعت فتح عينيّ أفاجأ بها ممددة على الفراش، بينما أكون مقتنعاً بأنها على بطني، وإحساسي الأكيد انها على بطني، وانها

تزن عليه، غريب. بل حين أفتح عينيّ وأراها ليست على بطني فكأني أرى يداً لي أخرى. وأحسّ بزوجتي ممددة إلى جانبي يلامس جسدها جسمي، وكلما فتحتُ عينيّ لأنظر إليها أغلقتُهما عفواً.

كأن جسدَ زوجتي بارد!

كأن جسدها والفراش الممددة عليه شيء واحد لا شيئان.

كأن هذا السيخ الذي كان في يدي يجمعها إلى الفراش جمعاً لا انفصال بعده.

وحبّات قليلة، من هذه الحبوب التي تسمح لهم بمتابعة العمل بهدوء، كافية لأن تنيم طفلاً إلى ما شاء الله، إلى الأبد. غافٍ ابني من يومين، لكن لا خوف عليه من البرد لأنه مغطى. فليأتوا إذن أنّى يشاؤون فقد أمّنت لهم جوّاً مؤاتياً للعمل، إلى الأبد. لكن عليهم أن يعرفوا انه مؤات لي أيضاً.

برد جسد زوجتي بسرعة، مع أن الطقس ربيعي وليس شتاءً.

أعتقد أنني قلت لهم بصوت مسموع، إن لكل شيء حدوداً، فلم يفهموا، أو انهم استلشقوا بي كعادتهم، و لم يقيموا اعتباراً لقولي.

وبي رغبة في التبويل عارمة، ترعاني بسببها أصول أضراسي، لكنني لو أُعطيت ما شئت لما كنت استطعت، بينما في المرّة الأولى... في المرّة الأولى هناك... على كلّ يتهيأ لي أنني لم أعد أذكر بدقة أين الباب الذي يفضي إلى الحمّام.

ماما!

كأن المكان يميع ويتداخل، وتختلط الأشياء المحدِّدة للأشياء أو تمّحي، ويصعب عليّ تذكّر الطريق إلى باب الحمّام، أو تصوّره، والرغبة ملحّة والإلحاح يزداد، ولكن ما النفع، بينما في المرة الأولى... في المرّة الأولى...

في المرّة الأولى مُنعتُ من البلع، كان عليّ أن أُمَخْمِضَ فقط، ثم أن ابصق حيث من جديد كان عليّ أنْ.

صدر للمؤلف:

- **حين حلّ السيف على الصيف**، شعر، مع ترجمته إلى الفرنسيّة (جمال الدين بن شيخ)، الفارابي، بيروت 1979.
- **لا شيء يفوق الوصف**، شعر، منشورات لبنان الجديد، بيروت 1980.
- **أي ثلج يهبط بسلام**، شعر، دار مختارات، بيروت 1993.
- **أنسي يلهو مع ريتّا - كتاب البالغين**، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر، بيروت 1983. ترجم إلى الأسبانية.
- **المستبدّ**، رواية، دار أبعاد، بيروت 1983. الطبعة الثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2001.
- **فسحة مستهدفة بين النعاس والنوم**، رواية، دار مختارات، بيروت 1986. الطبعة الثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2001. ترجمت إلى الفرنسية والإنكليزية.
- **أهل الظلّ**، رواية، دار مختارات، بيروت 1987. الطبعة الثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2001. ترجمت إلى الفرنسية.
- **تقنيّات البؤس**، رواية، دار مختارات، بيروت 1989. الطبعة الثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2001.
- **غفلة التراب**، رواية، دار مختارات، بيروت 1991. الطبعة الثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2001.
- **عزيزي السيّد كواباتا**، رواية، دار مختارات، بيروت 1995. الطبعة الثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2001. صدرت مترجمةً إلى ثماني لغات أوروبيّة هي: الأسبانيّة، الفرنسيّة، الإيطاليّة، الألمانيّة، الإنكليزيّة، الهولنديّة، السويديّة، البولونيّة، في سلسلة "ذاكرة المتوسّط".
- **ناحية البراءة**، رواية، دار المسار، بيروت 1997. ترجمت إلى الإنكليزية.

الطبعة الثانية، دار الساقي، بيروت 2013.

- **ليرننغ إنغلش**، رواية، دار النهار، بيروت، الطبعة الأولى 1998، الطبعة الثانية 1999، الطبعة الثالثة 2000. الطبعة الرابعة دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2005. ترجمت إلى الفرنسية والإنكليزية. الطبعة الخامسة، دار الساقي، بيروت 2013.
- **تصطفل ميريل ستريب**، رواية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 2001، الطبعة الثانية 2008. ترجمت إلى الفرنسيّة والإيطالية واليونانية والاسبانية. الطبعة الثالثة، دار الساقي، بيروت 2013.
- **إنسي السيارة**، رواية، دار رياض الرّيس للكتب والنشر، بيروت 2002. الطبعة الثانية، دار الساقي، بيروت 2013. ترجمت إلى الفرنسية والبرتغالية.
- **معبد ينجح في بغداد**، رواية، دار رياض نجيب الرّيس للكتب والنشر، بيروت 2005. ترجمت إلى الفرنسية.
- **عِودة الألماني إلى رشده**، رواية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، الطبعتان الأولى والثانية، 2006. ترجمت إلى الألمانية. الطبعة الثالثة، دار الساقي، بيروت 2013.
- **اوكي مع السلامة**، رواية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2008. الطبعة الثانية، دار الساقي، بيروت 2013.
- **تبليط البحر**، رواية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2010.
- **وطني ليس على حق**، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2001 (محاضرة ألقيت في مقرّ الأمم المتحدة في جنيف بمناسبة سنة حوار الثقافات 2001).

- «من مزّق الصورة؟»

يريد المحقّقون معرفة هذه الحقيقة، وهو يريد قول الحقيقة ولا شيء عنده ليخفيه، فكيف يمكنه إقناعهم بما يقول؟ والمحقّقون الشباب هؤلاء يتطلّبون الكثير ممّن يحقّقون معهم. يطلبون منهم مثلاً ألاّ يبقوا شيئاً عليهم يستر عريهم. أمّا هو فلا شيء يدعوه للحرج، فقد تحمّم هذا الصباح، واستبدل ثيابه الداخلية بثياب أخرى نظيفة «مهفهفة». شيء وحيد قد يسبّب له الإحراج، لقد مشى كثيراً ذلك اليوم ورجلاه تعرقان كثيراً، مما قد يضاعف غضبهم... لكنّه لم يتصوّر أن تبلغ رغبتهم في معرفة الحقيقة أن ينقلوه إلى بيته ليحقّقوا معه هناك، في حضور زوجته وابنه!

رشيد الضعيف كاتب وروائي لبناني. صدر له عن دار الساقي «أوكي مع السلامة»، «عودة الألماني إلى رشده»، «إنسي السيارة»، «ليرننغ إنغلش»، «تصطفل ميريل ستريب».



ISBN 978-1-85516-969-2

